الفصل الأول

نهاية العزلة وإرهاصات عصر ميجى

١ - الانفتاح على الغرب وفوضى نهاية الباكفو:

فى النصف الثانى من القرن السابع عشر حدثت ثورة مدنية فى إنجلترا تعيد للمواطن العادى حقوقه المدنية، وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بدأت الثورة الصناعية متمركزة على صناعة النسيج. ثم ازدادت بشكل سريع قوة الإنتاج الصناعى عن طريق استخدام الماكينات التى تعمل بالبخار كقوة محركة. وقد وصلت مثل هذه الحركات السياسية والاقتصادية إلى باقى الدول الأوروبية وكذلك وصلت إلى أمريكا. وعلى خلفية امتلاك قوة إنتاجية وأخرى عسكرية متزايدتين ومتعاظمتين، فقد أغرى ذلك القوى الأوروبية والأمريكية بزعامة إنجلترا بالتقدم نحو آسيا مستهدفين فى ذلك حماية أسواق منتجاتهم، وكذلك المواد الخام اللازمة لتلك المنتجات الصناعية المنتجة بطريقة ميكانيكية. وحاولت هذه القوى أن تدمج الدول الآسيوية بالقوة فى أسواق العالم الرأسمالى، وفى هذه المرحلة سقطت العديد من الدول لتصبح مستعمرات أو لتصبح فى موضع الخاضع اقتصاديا أو سياسياً لدول الغرب. وما لبث هذا المد الاستعمارى أن وصل إلى شرق آسيا وكانت نهايته فى اليابان، ثم أبحرت السفن الروسية والإنجليزية وبعد ذلك السفن الأمريكية بطريقة متكررة نحو الموانئ اليابانية. ولمطالبة هذه السفن التبادل التجارى مع مختلف الدول الآسيوية فقد أدى هذا بالتالى إلى تكوُّن تحركات كبرى فى الأوضاع العالمية.

وكانت الأنباء التى جاءت لليابان عن حرب الأفيون التى حدثت فى الصين (١٨٤٠م-١٨٤٢م) قد أصابت حكومة الباكفو بصدمة كبيرة. وكانت هذه الأنباء قد وصلت إلى اليابان عبر السفن الهولندية والصينية. وكانت سفن هاتين الدولتين فقط المسموح لها بالدخول إلى الموانئ اليابانية منذ وقت طويل وذلك رغم فرض الحظر على باقى السفن الأجنبية وهذا ما جعل حكومة الباكفو اليابانية إلى التخفيف من الأمر الصادر فى عام ١٨٢٥م بإطلاق النيران على السفن الأجنبية حال اقترابها من الموانئ اليابانية، وغيرته ليكون أمراً بإمداد السفن الأجنبية التى يجرفها التيار بالفحم اللازم لتشغيل السفن وكذلك بالمياه والمؤن، كان

ذلك حينما علمت حكومة الباكفو من خلال السفن الهولندية أن إنجلترا كانت قد خططت لإرسال أسطول حربى إلى اليابان بعد أن تنتهى حرب الأفيون من أجل مطالبته اليابان بالتبادل التجارى، وحاولت بذلك تجنب الوقوع فى حرب ضد الدول الأجنبية. وإلى جانب ذلك أصدرت حكومة الباكفو أمراً إلى المقاطعات القريبة من خليج أيدو لعمل الاحتياطيات اللازمة لحماية هذا الخليج. وكذلك عملت حكومة الباكفو على اتخاذ مختلف الإجراءات من أجل حماية الطريق الملاحى بين عاصمة البلاد آنذاك إيدو ومدينة أوساكا التى كانت تمد العاصمة بمختلف المواد الغذائية وحماية هذه السفن التى تبحر بين المدينتين.

وفى عام ١٨٤٤م بعث ملك هولندا بخطاب ودى إلى حكومة الباكفو شارحاً فيه وناصحاً فى الوقت ذاته حتى لا تواجه المصير نفسه الذى واجهته الصين بسبب حرب الأفيون وما ترتب عليها من اقتطاع هونج كونج منها بسبب هزيمتها فى هذه الحرب. ولذلك نصح اليابان بأن تفتح أبوابها أمام الغرب. إلا أن حكومة الباكفو رفضت نصيحته واستمرت فى سياسة فرض العزلة على اليابان. وفى عامى ١٨٤٤م و١٨٤٥م حاولت السفن الفرنسية والإنجليزية مطالبة حكومتى اليابان والصين لأن تجعلا من موانئ ريوكيو (أوكيناوا الحالية) مرافئ لها؛ حيث إن أوكيناوا فى الوقت ذاته كانت خاضعة للإدارة الثنائية لكل من الصين واليابان. وهذا يعنى مدى الضغوط التى مارستها الدول الغربية على حكومة الباكفو لفتح الموانئ والمدن اليابانية أمام حركة الملاحة والتجارة الغربية.

والذى زاد الطين بله هو دخول أمريكا حلبة المنافسة أيضاً على فتح موانئ اليابان وذلك عندما بدأت إعطاء تجارتها مع الصين اهتماماً واضحاً خاصة بعد قيامها بإجراء حركة تحديث فى ثورتها الصناعية مع دخولها القرن الثامن عشر، فطالبت اليابان أيضاً بفتح موانئها أمام سفن صيد الحيتان وكذلك السفن التجارية الخاصة بها. وكان أن حدث بالفعل أن جاء بيدل (Biddle ١٧٨٣م – ١٨٤٨م) قائد الأسطول الأمريكى فى شرق الهند إلى ميناء أوراجا فى عام ١٨٤٦م مبعوثاً من الحكومة الأمريكية قائداً لأول بعثة أمريكية لليابان لمطالبة حكومة الباكفو بإقامة التبادل الدبلوماسى والتجارى بين بلاده واليابان. ولكن حكومة الباكفو أعلمته بقانون العزلة الذى تفرضه اليابان على نفسها ورفضت بالتالى مطالبه. ولكن هذا الطلب الأمريكى لم ينقطع خاصة بعد اكتشاف مناجم للذهب فى كاليفورنيا فى عام ١٨٤٨م، وبالتالى تم إعمار المناطق القريبة من الولايات المتحدة الأمريكية بطريقة سريعة،

ولذلك خططت أمريكا لعبور أساطيلها التجارية للمحيط الهادى للتجارة مع الصين، وفى الوقت ذاته انتعش مجال صيد الحيتان فى شمال المحيط الهادى. ومن هذا المنطلق ظهرت حاجة السفن التجارية وسفن صيد الحيتان الأمريكية المسلحة للموانئ اليابانية من أجل التوقف بها وإمداد السفن الأمريكية بالوقود والمؤن، وكذلك للحماية فى أوقات الطوارئ.

ونظراً لهذه الاحتياجات، فقد قام الإدميرال البحرى بيرى القائد العام لأسطول شرق الهند الأمريكى فى يونيو عام ١٨٥٣م بالإبحار نحو ميناء أوراجا اليابانى مصطحباً أربع قطع بحرية. وكان مع بيرى خطاب رسمى من الرئيس الأمريكى فيلمور (١٨٠٠م – ١٨٧٤م) يطالب من خلاله حكومة الباكفو بفتح موانئها أمام التبادل التجارى أمام السفن الأمريكية. وكانت حكومة الباكفو لديها معلومات عن هذا الأمر من خلال رئيس الغرفة التجارية الهولندية، إلا أنها لم تتخذ إجراءات حاسمة تجاه ذلك. ومن الجدير بالذكر أن حكومة الباكفو لم تكن قبل ذلك تتسلم خطابات مثل تلك التى جاء بها بيرى من أية دولة أخرى عدا كوريا وريوكيو (أوكيناوا) ولكنها فى هذه المرة وبسبب الأسلوب المتشدد الذى أظهره بيرى، فقد اضطرت لتسلم الخطاب بطريقة رسمية، على أن تقوم بالرد عليه فى العام التالى، ومن ثم غادرت حملة بيرى اليابان مؤقتاً. ولم يلبث بعد ذلك بقليل أن أبحر إلى ناجاساكى المبعوث الروسى بوتاتين Putyatin (١٨٠٣م – ١٨٨٣م) مطالباً اليابان بإقرار الانفتاح لها أيضاً.

وفى يناير ١٨٥٤م أبحر بيرى مرة أخرى إلى ميناء أوراجا وهو يقود فى هذه المرة سبع قطع بحرية، وفى هذه المرة مارس بيرى ضغوطاً عسكرية على حكومة الباكفو مثل إجراء أعمال مساحة وقياس لخليج إيدو، وبالطبع كانت كل الضغوط من أجل توقيع المعاهدة مع اليابان، وبالفعل خضعت حكومة الباكفو لهذه القوة وعقدت معاهدة الصداقة اليابانية الأمريكية. ولأن هذه المعاهدة عقدت بفندق قريب من محافظة كاناجاوا فقد أطلق عليها أيضاً معاهدة كاناجاوا.

٢- معاهدة الصداقة اليابانية الأمريكية: (معاهدة كاناجاوا)

تتكون هذه المعاهدة من ١٢ مادة أهمها:

١ – إمداد السفن الأمريكية بما تحتاجه من الوقود والمؤن.

٢ – مساعدة السفن التى قد تلجأ لطلب المعونة وإنقاذ بحارتها.

٣ – فتح ميناءى شيمودا (محافظة شيزوأوكا) وهاكوداتى (مدينة تقع فى جنوب غرب جزيـرة هوكايدو فى أقصى شمال اليابان) للملاحة الأمريكية وكذلك إقامة قنصلية أمريكية فى كلتا المدينتين.

٤ – إقـرار حـق أمريكا فى امتيـاز الدولة الأولى بالرعاية ومـن جانب واحد أى ليس لليابـان هذا الحـق، وكذلك يحق لأمريكا أن تحصل بطريقـة أوتوماتيكية على أى امتياز تعطيـه اليابان لأية دولة أخرى غـير أمريكا قد يفوق على الامتيازات التى أعطتها اليابان لأمريكا من خلال معاهدات أبرمتها معها.

ومـن الجدير بالذكـر أنه حتى توقيع معاهدة كاناجاوا وما بـين زيارة بيرى الأولى فى يوليو ١٨٥٣م ويناير ١٨٥٤م وقع جميع قادة اليابان وكذلك أتباعهم من رجال الباكفو فى ارتباك وفوضى كبيرين وأصبحت أفكارهم تهيم فى فوضى عظيمة، وكانوا فى قرارة أنفسهم يريدون استمرار الأوضاع القديمة من حيث إبعاد الأجانب عن اليابان ولكن فى الوقت نفسه لم يكونـوا يملكون القوة الكافية لتنفيذ هذا الهدف ولذلك حاولوا تجنب الحرب مع الدول الغربيـة لقناعتهم التامة بعدم مقدرتهم على مواجهة الدول الغربية عسـكرياً. ولذلك فعند مقـدم بيرى لليابان فـى زيارته الثانية وضعت حكومة الباكفو أمام عينيها الموقف المتصلب لبيرى وعزمه على استخدام القوة إذا لم تفلح المفاوضات مع اليابانيين من أجل فتح موانيها أمـام السـفن الأمريكية. وعليه فقد أعدت حكومة الباكفـو خطة هى فى مفادها أنه لا مفر مـن التبادل التجارى مع الأمريكان. وكان قائـد الجناح الذى يدعو لعدم إدخال الأجانب هـو طولوجاوا نـارى آكـى Tokugawa Nariaki (١٨٠٠م – ١٨٦٠م) الذى حاول قدر جهده أن يتملص من توقيع معاهدة مع بيرى متخذاً فى ذلك سياسة زئبقية تدعى سياسة بوراكشـى «Burakashi». ولكن نارى آكى لم يستطع تنفيذ هذه السياسة واضطر إلى إلقاء لافتة «طرد الأجانب» جانباً وأصبح واضحاً وجلياً أن سياسـته قد فشـلت. وفى ٣٠ فبراير ١٨٥٤م أرسلت حكومة الباكفو اثنين من رجالاتها إلى مدينة كاناجاوا.

وعن خطة التنازلات التى وضعتها حكومة الباكفو فهى كالتالى:–

١ – تعرض حكومة الباكفو فتح موانئ اليابان فى خلال خمس سـنوات وإذا تم رفض هذا تخفض الفترة إلى ثلاث سنوات.

٢ – يكون ميناء ناجاساكى هو فقط الميناء المطروح للتجارة مع الغرب أو بالأحرى أمام السفن الأمريكية، وإذا تم رفض هذا العرض يضاف إليه ميناء شيمودا.

وكان لمجيء بيرى الثانى وقع الصدمة على أهالى أيدو وإن لم يكن بالطبع مثل المرة الأولى، وعلى الرغم من الهدوء النسبى الذى ساد أنحاء المدينة، فإن مشكلة أخرى ظهرت فى الأفق ألا وهى طول فترة مكوث الأسطول الأمريكى التى أدت إلى زيادة نفقات الحراسة التى كان يتناوب عليها العديد من المقاطعات، وسرعان ما ألقيت تبعات هذه النفقات على عاتق الأهالى. ولم تقتصر معاناة الأهالى على ذلك فقط، بل إن الأماكن التى كان يرسو بها الأسطول الأمريكى كانت كل أنشطة الحياة وغيرها تتوقف بها. والأدهى من ذلك أن حمالى السفن الأمريكية كانوا عندما ينقلون متاع السفن إلى البر فإنهم لم يكونوا يكتفون بالأماكن التى عليهم نقل المتاع إليها بل كانوا يذهبون بعيداً ويتجولون فى القرى المحيطة ويطاردون النسوة بهذه القرى. فلم يجد سكان هذه القرى سوى إغلاق أبواب بيوتهم والاختفاء خلفها خوفاً من هؤلاء الحمالين الأشقياء. بل إن النساء اللاتى كن يجمعن القواقع للمساعدة على جمع قوت بيوتهن لم يكن يستطعن الذهاب إلى شاطئ البحر بسبب هؤلاء الحمالين وغيرهم، فكانت أحوال العمل للكثيرين تسير بصعوبة على غير المعتاد، مما أدى إلى سوء الأحوال فى القرى المحيطة. ويذكر أن هذا الوضع السيىء وصل إلى أقصى حدود محافظة كاناجاوا فى قرى الصيادين بالمدينة الساحلية ساجامى Sagami لكن الطريف أن سكان أيدو والقرى القريبة كانوا يتوقون لرؤية سفن بيرى السوداء وكان عليهم أن يسافروا عبر طريق يصل من ٤٠ – ٨٠ كيلو حتى يروا سفن بيرى السوداء، لدرجة أن الحكومة أصدرت تصريحًا حذرت فيه المواطنين من الذهاب إلى كاناجاوا حتى لو كان لديهم أعمال أو أشغال هناك.

وعلى الرغم من مظاهر القوة والإجبار التى جاء بها بيرى إلى اليابان فإنه لم يحاول فى بداية الأمر فرض المعاهدة بالقوة، فقد وافقت حكومة الباكفو بسلاسة على طلب بيرى بإمداد السفن الأمريكية بالمؤن والفحم (الوقود) اللازم لها، وكذلك على مساعدة السفن والتجار الذين يطلبون المساعدة. ولكنها – أى حكومة الباكفو – رفضت طلب بيرى بالتجارة بين البلدين. وهنا تراجع بيرى عن طلبه دون إبداء معارضة، ولكنه فقط قدم للباكفو وثائق معاهدة الصداقة والتجارة الأمريكية الصينية كى تكون بمثابة مرجع لحكومة الباكفو لتضع على نسقه وثائق المعاهدة الأمريكية اليابانية المزمع عقدها.

وكانت المشكلة الكبرى فى المفاوضات هى أية موانئ يمكن لليابان فتحها للتجارة مع الأمريكان. ولكن فى النهاية قررت الباكفو فتح ميناءى شيمودا الواقع بمدينة إيزو بمحافظة

شيزاوكا، وميناء هاكوداتى الواقع فى جزيرة هوكايدو فى أقصى شمال اليابان، ووافق بيرى على هذا الترشيح. وكانت وجهة نظر بيرى أنه حقق بهذا هدف حملته على اليابان.

وفى الخامس عشر من فبراير ١٨٥٤م أُرسلت من أمريكا آلات تلكس وقطارات بخارية وساعات وتلسكوبات وأسلحة صغيرة وسيوف غربية وآلات زراعية وغيرها إلى الشوجون وإلى المفاوضين اليابانيين. ومن بين التجارب التى أذهلت اليابانيين تلك التى عرضها الأمريكيون وذلك بإجراء اتصال تلغرافى عبر الأسلاك لمسافة ١,٦ كيلو متر، وكذلك عندما عرضوا لتجربة نموذج قطار بخارى يسير على قضبان حديدية.

هذه التجارب أثارت إعجاب اليابانيين ودهشتهم بلا ملل من تكرارها وكان كلما تصدر صفارات القطار تصدر معها صيحات إعجاب اليابانيين ودهشتهم. وبذلك أثارت هذه التجارب فضول اليابانيين واستحسانهم. ورداً على ذلك وفى الثامن والعشرين من الشهر نفسه أرسلت الهدايا من الشوجون إلى الرئيس الأمريكى والإدميرال بيرى رداً على الهدايا التى أرسلت من أمريكا. ومن بين هذه الهدايا: محبرة يابانية مُذهّبة، ومكتب مطلى بالورنيش الأسود، وزهريات، وحرير وغيرها. وإلى جانب ذلك أقيم عرض للمصارعين اليابانيين الذين يفخرون بقدرتهم فى عرض للرياضة اليابانية التقليدية «السومو».

وفى غضون هذه الرسميات والمجاملات تم عقد معاهدة الصداقة اليابانية الأمريكية فى ٣١/ ٣/ ١٨٥٤م، ولأنها وقعت فى محافظة كاناجاوا، فقد أطلق عليها أيضاً معاهدة كاناجاوا نسبة للمكان الذى وقعت فيه والتى تحدثنا عنها تواً.

هكذا لعب بيرى بالنسبة لليابان الدور الذى لعبه نابليون بالنسبة لمصر قبل ذلك بأكثر من نصف قرن مع اختلاف شديد فى طبيعة هذا الدور، فبيرى فتح أبواب اليابان فقط أمام التعامل مع الغرب ولم يرتكب الفظائع التى ارتكبها نابليون فى مصر. صحيح أن اليابان قدمت تنازلات لأمريكا ولغيرها من دول الغرب من خلال المعاهدات الظالمة التى فرضت عليها وكما سنرى فيما بعد، إلا أن هذا لا يمكن مقارنته بما ضحت به وعانت منه مصر من جراء الحملة الفرنسة على الرغم من أنها كانت بالفعل الناقوس الذى أيقظ المصريين من أجل الولوج إلى العصر الحديث.

بالطبع لم تكن بقية الدول الأوروبية لتسكت عن مطالبة اليابان بعقد معاهدات مثلما فعلت مع أمريكا، فلم تمض سوى خمسة أشهر حتى عقدت إنجلترا معاهدة الصداقة

اليابانيـة – الإنجليزيـة Nichieiwashin Jōyaku فى شـهر أغسـطس ١٨٥٤م. وقد تم عقد هذه المعاهدة بمنتهى السـهولة وذلك بالطبع بسبب عقد اليابان لمعاهدتها للصداقة مع أمريـكا. وكان الدافـع الأكبر لإنجلترا لعقد معاهدتها مع اليابان هو تنافسـها الحربى مع روسيا، فقد طورت روسيا من تحركاتها العسكرية فى بحار الشرق الأقصى.

وفـى هـذه الأثناء كانت إنجلـترا تخوض مع تركيا وفرنسـا حرب القرم ضد روسـيا (١٨٥٣م – ١٨٥٦م)، وهـذا بالطبـع أوجد ضرورة قصوى لـدى بريطانيا لكى يكون لها مرافئ لسـفنها فى اليابان، حتى تستطيع مواجهة التحركات العسكرية الروسية. وعليه، فقد أرسلت إنجلترا بقائد أسطول الهند الصينية الشرقى وهو الجنرال ستالينج إلى اليابان، وبالفعـل نجح هذا القائد البحرى أن يعقد معاهدة للصداقة مع اليابان كما أسـلفنا القول، إلا أن هـذه المعاهدة جاءت فى صيغة عسـكرية إلى حد كبير أكثر منها تجارية كما كانت تريد إنجلترا.

أما روسـيا ففى الحقيقة كانت سـابقة لإنجلترا فى محاولتها لعقد معاهدة للصداقة مع اليابان، فكانت روسـيا قد أرسلت أسـطولًا بحريًا مكونًا من أربع قطع بقيادة بوتشاتشين وذلك بعد شهر واحد فقط من مجيء بيرى إلى أوراجا، أى فى شهر يوليو من عام ١٨٥٣م، ولكـن نظراً لاحتدام الصراع فى أوروبا بسـبب اجتياح الجيش الروسـى للحدود التركية، وتوقـع انـدلاع الحرب بين كل من إنجلترا وفرنسـا وتركيا ضد روسـيا – وهذا ما حدث بالفعل فيما عرف بحرب القرم – اضطر بوتشاشـين وأسطوله الروسى إلى مغادرة السواحل اليابانية. إلا أنه عاد مرة أخرى فى شهر ديسمبر إلى ميناء ناجاساكى وطالب بعقد المعاهدة مـع اليابان، وأخيراً وبعـد العديد من المحادثات تم التوقيع على المعاهدة بين البلدين فى ديسمبر من عام ١٨٥٤م.

ضمت معاهدة الصداقة اليابانية الروسية تسع مواد، ولكن كان أهمها ما يلى:–

١ – فتح ثلاثة موانئ أمام السفن الروسية وهى هاكوداتى ونجاساكى وشيمودا.

٢ – تكون جزر أتروفو هى آخر حدود اليابان وتصبح جزر كارافوتو (سـخالين) جزيرة مشتركة بين البلدين يعيش بها مواطنو البلدين.

٣ – تعترف اليابان لروسيا بحق الدولة الأحق بالمعاملة والرعاية، وكذلك بحق التقاضى للمواطنين الروس أمام محاكم بلدهم على الرغم من وجودهم باليابان.

بعد روسيا عقدت اليابان معاهدة أخرى مع فرنسا فى أكتوبر من عام ١٨٥٥م ثم كانت هولندا آخر دولة تعقد معاهدة للصداقة مع اليابان، وهذا فى الحقيقة كان عكس مجريات الأحداث، فقد كانت هولندا هى الدولة الأوروبية الوحيدة التى كانت تتعامل تجارياً مع اليابان، وذلك طوال ما يزيد على ثلاثة قرون، وهى أيضاً التى نصحت اليابان بأن تفتح أبوابها أمام المد الغربى حتى لا يحدث لها مثلما حدث للصين من هزيمة تلقتها على أيدى الدول الأوروبية المتحالفة ضدها.

على أية حال، تم أخيراً توقيع معاهدة الصداقة اليابانية – الهولندية فى نهاية عام ١٨٥٥م. وطبقاً لهذه المعاهدة اعترفت اليابان بجميع الحقوق الهولندية فيما يتعلق بالسكن فى جزيرة دشيما Deshima والأراضى المستأجرة وكذلك فى إنشاء المنازل الخاصة والمخازن، وإلى جانب ذلك تُلغى جميع الإجراءات المتعسفة التى تُتخذ حيال دخول السفن الهولندية وخروجها وإزاء المواطنين الهولنديين كذلك. وقبل توقيع هذه المعاهدة كانت العلاقات اليابانية الهولندية تتوقف عند حد التجارة مع الهولنديين، ولكن بتوقيعها بدأت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين تتخذ مجراها الرسمى.

كانت عملية فتح أبواب اليابان أمام الدول الغربية وسفنها شيئاً بغيضاً على الكثير من رجال الباكفو وذلك لأن حكومة الباكفو ورجالاتها اعتبروا هذا تهديداً لوضع الباكفو وتحطيماً لسياسة العزلة الطويلة التى وجدوا فيها الأمان لليابان من وقوعها فى براثن الاستعمار والتدخل الغربى كما حدث فى بلدان أخرى عديدة مجاورة لليابان وغير مجاورة لها.

وسار على منوال الحكام فى هذا القلق كل اليابانيين، فنراهم ينشدون بيتاً من الشعر عبّر عن هجوم الكوارث على اليابان متمثلاً ذلك فى السفن السوداء التى جاء بها بيرى فى كاناجاوا، وفى شمال إقليم الكانتو حيث توجد مدينتا كاناجاوا وإيدو حدث زلزال مروع فى نوفمبر من عام ١٨٥٤م، وهنا تغنى العامة ببيت شعر حزين يقول: عالمنا الهادئ يتهاوى: فالشمال يهتز والجنوب أيضاً يهتز. وكأن لسان حالهم يقول إن الكوارث لا تتآتى فرادى ولكن جماعات. والأدهى من ذلك، وفى خضم هذه الأحداث من تنازلات الساسة اليابانيين عن كثير من حقوق اليابان، يأتى زلزال آخر مروع بعد أقل من عام واحد ليهز أرجاء مركز الباكفو العاصمة إيدو. وهذا الزلزال يعرف فى تاريخ اليابان بزلزال إيدو الرهيب. وقد راح ضحية هذا الزلزال المفكر الكونفوشى فوجيتا طوكو Fujita Toko (١٨٠٦م – ١٨٥٥م).

وتوفى هذا الرجل بعد أن أنقذ والدته من الموت المحقق. وهذا المفكر كان فى الوقت نفسه المعلم الرئيسى لحاكم مقاطعة ميتو طوكوجاوا ناري آكى Tokugawa Nariaki (١٨٠٠م – ١٨٦٠م) كان مشهوراً بعدائه الشديد للأجانب ولفكرة التعامل معهم لدرجة أنه كان يفكر لو أن الأسلحة توافرت له لطردهم على التو من اليابان كلها. لكن ما حدث أن السماء جاءت بالأجانب وقضت على عدو الأجانب الأكبر ناري آكى فى عام ١٨٦٠م ليخلو الجو لأصحاب الفكر المعتدل من أمثال هوتا ماسايوشى Hotta Masayoshi (١٨١٠م – ١٨٦٤م) وحاكم هيكونى أى ناأوسيكى Ii Naosuke (١٨١٥م – ١٨٦٠م) وكلاهما سيوقع على معاهدات تجارية مع البلدان الأجنبية الخمسة التى سبق لليابان أن وقعت معهن معاهدات صداقة. أما الثانى فقد نال عقاباً شديدًا من معارضى توقيع معاهدات مجحفة مع الأجانب فقاموا باغتياله فى عام ١٨٦٠م، فيما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد.

٣- إصلاح آنسى (Ansei Nokaikaku) :

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الإصلاح نود فقط أن نعرف ببساطة أن إصلاح آنسى يعنى تلك الإصلاحات والإجراءات السياسية والمشاريع والمنشآت التى قامت بها حكومة الباكفو فى فترة آنسى Ansei أى ما بين ١٨٥٤م إلى ١٨٦٠م. فقد كان لابد لحكومة الباكفو وحكام المقاطعات أن يتخذوا عدة إجراءات إصلاحية تهدف إلى مواجهة الوضع الجديد الذى وضعت فيه اليابان بعد عقد معاهدات الصداقة الخمس التى تحدثنا عنها تواً. فقد وجدت اليابان نفسها ولأول مرة فى تاريخها فى مواجهة صادمة أمام حضارة الغرب المتفوقة عليها فى مختلف المجالات، وعلى الأخص المجال العسكرى. فها هو ذا بيرى يتقدم نحو السواحل اليابانية بمدافعه العملاقة وأسطوله الضخم فلم يكن أمام الباكفو من بد إلا إدخال هذه التقنية الحديثة. وتولدت عندها وعند حكام المقاطعات رغبة أكيدة فى إدخال مختلف النواحى المتقدمة لدى الغرب. ومن هنا نشأ إصلاح آنسى.

ومن أهم مظاهر إصلاح آنسى هو إنشاء الباكفو لطابية كبيرة فى منطقة شيناجاوا تحت إشراف الناشط والمصلح إجاوا هيدتاتسو Egawa Hidetatsu (١٨٠١م – ١٨٥٥م) وذلك من أجل إحكام الحماية على ساحل أيدو. وفى ناجاساكى تم إنشاء ما يمكن أن نعرفه بالأكاديمية البحرية فى عام ١٨٥٥م وذلك من أجل تدريب البحارة اليابانيين على قيادة السفن الحربية ذات الطراز الغربى، وقد تم تدريبهم على يد الهولنديين. إلا أن هذه

الأكاديمية سرعان ما أغلقت فى عام ١٨٥٩م. وفى عام ١٨٦٦م تم إعادة إنشائها فى مدينة يوكوهاما ولكن على أساس من النظم الفرنسية. وفى عام ١٨٥٦م (٣ من آنسى) تم إنشاء مؤسسة للترجمة والتعليم تهتم فى الأساس بالنواحى العسكرية الغربية وكان مقرها فى مدينة إيدو. وفى عام ١٨٥٤م تم إنشاء مدرسة حربية لتدريب محاربى الباكفو على استخدام المدافع وغيرها من الأسلحة. ومن أجل صنع المدافع تم إنشاء عدد من الأفران العاكسة لصهر الحديد فى العديد من المدن مثل ميتو وكاجوشيما وهاجى Hagi، وعلى الأخص بذلت مقاطعة ميتو (تمثل الآن وسط محافظة إيباركى) جهوداً بارزة من أجل إنشاء هذه الأفران وكذلك مصانع لإنتاج البارود. والطريف أنها كانت أكثر من أخذ بالنظم الغربية الحديثة على الرغم من أنها كانت تعتبر معقلاً لأعداء الأجانب وأكثر المطالبين بطردهم من اليابان. إلا أن مقاطعة ساتسوما القوية آلت على نفسها إلا أن تأخذ دور القيادة فى إدخال مظاهر الحضارة الغربية العسكرية وغير العسكرية فتوسعت فى إدخال النواحى العسكرية لدرجة أنها سوف تستطيع مواجهة إنجلترا فى معركة حامية الوطيس فيما بعد وذلك فى عام ١٨٦٣م وسوف تكون هذه الحرب (Satsuei Senso) السبب فى تقارب الطرفين – إنجلترا وساتسوما – فيما بعد.

وبلاشك فإن إصلاح آنسى لم يأت ولم يخرج إلى النور ما لم تكن هناك مواجهة مع الغرب أحدثها بيرى بمجيئه إلى أوراجا فى يوليو ١٨٥٣م. ولكن لم يكن إصلاح آنسى وتطوير الفكر اليابانى هو وحده نتيجة هذه المواجهة، بل كانت هناك عدة نتائج أخرى لا يمكن إغفالها. فحتى مجىء بيرى كانت حكومة الباكفو تتصرف فى شئون البلاد كما يحلو لها وباستبداد واضح. ولكن يبدو أن العزلة الطويلة التى وضعت الباكفو فيها نفسها واليابان كلها قد أفقدتها الخبرة فى التعامل مع الأجانب، فما إن تلقت خطاب الرئيس الأمريكى الذى أتى به بيرى حتى أسقط فى يديها وفشلت فى التفكير هذه المرة باستقلالية. ولذلك نجد مستشار الباكفو أبى ماساهيرو Abe Masahiro (١٨١٩م – ١٨٥٧م) يخرق كل تقاليد الباكفو السابقة ويبعث بتقرير إلى الإمبراطور حول رسالة الرئيس الأمريكى، بل يبعث إلى عدد من الدايموات يطلب منهم إبداء آرائهم حول الخطاب نفسه. وبذلك الإجراء غير المسبوق من ماساهيرو فقد عاد مرة أخرى بعد طول غياب البلاط الإمبراطورى إلى معترك السياسة، وزادت بالفعل صلاحياته وسلطاته. كذلك أعطى هذا الإجراء الفرصة لحكام الأقاليم أن يدلوا بدلوهم فى أمور سياسية لم يكن لهم فيما سبق أى دور.

وهكـذا وجدنا تحـولاً كبيراً فى إدارة الباكفو الاسـتبدادية للأمور السياسـية، ورويدا رويداً تصاعدت حدة المواجهة مع الغرب وتصاعدت معها وتيرة العداء له بسـبب المطالبة الأمريكية بتطوير معاهدة الصداقة مع اليابان لتصبح معاهدة للتجارة أيضاً. ففى عام ١٨٥٦م عين الدبلوماسـى هاريس (١٨٠٤م – ١٨٧٨م) كأول قنصل عام لأمريكا فى شيمودا، وفى العام التالى حظى هذا القنصل بمقابلة الشوجون، ولكنه خلال هذه المقابلة طالب بشىء من الحدة بعقد معاهدة تجارية يابانية – أمريكية. ولكن المسـئول اليابانى الذى كان يفاوض هاريس، وهو هوتا ماساسا يوشى اشترط موافقة البلاط الإمبراطورى على هذه المعاهدة. ويبدو أن نجاح هاريس فى عقد اتفاقية «شيمودا» هو الذى جعله يطمع فى توقيع اتفاقية تجارية مـع اليابان. وكانت اتفاقية شـيمودا هى ثانى اتفاقية تعقدهـا الولايات المتحدة الأمريكية مع اليابان بعد اتفاقية كاناجاوا. ونجح هاريسى من خلال اتفاقية شيمودا التى عقدت فى مايـو ١٨٥٧م – فى أن ينتـزع حق الإقامة للأمريكان فى اليابان وكذلك حق عقد المحاكم القنصلية فى اليابان، وهى تلك التى يكون فيها أحد أطراف القضية أمريكياً والطرف الآخر يابانياً ولكن تكون المحاكمة طبقاً للقانون الأمريكى وليس اليابانى.

وفـى لقائه مع مستشـار الباكفو اسـتعمل هاريـس فصاحته مرة بالنصـح ومرة أخرى بالتهديد. فهو يحاول إقناعه أنه عن طريق التجارة فقط يمكن بناء دولة غنية وجيش قوى. وهـو أيضـاً يحذرهم بل يهددهم بعواقب الأمور إذا ما التفتت كل من إنجلترا وفرنسـا إلى اليابان بعد هزيمة الصين أمامهما فى حرب السهم (١) (١٨٥٦م – ١٨٦٠م).

وهكذا ظل هاريس يخيف اليابان من نوايا إنجلترا الاستعمارية، ويحاول إقناع مسئولى الباكفـو بـأن عقد معاهدة للتجارة والصداقة مع أمريكا سـوف يوفر الحماية لليابان حتى لا تقـع فى براثن الاحتلال على يد إنجلترا ذات النوايا السـيئة، وهو فى الوقت نفسـه لا ينسى أن يشيد بدور أمريكا فى حماية دول أخرى غير اليابان من مصير الغزو على يد الدول الاستعمارية.

ولكن وعلى عادة كل السياسيين فى استخدام كل الطرق والوسائل المتاحة لهم من أجل الوصول إلى أهدافهم فإن هاريس لم يتردد فى التلويح والتهديد باسـتخدام القوة المتمثلة فى الأسـطول الأمريكى ومدافعه التى لا تخطئ، وذلك عندما تأخر رد حكومة الباكفو شـهراً واحداً عليه. وبالفعل ظهر تأثير هذا التهديد سـريعاً. فسرعان ما اجتمع به المستشار هوتا

ماسايوشى ودخلا فى المفاوضات مرة أخرى. وكان واضحاً أن حكومة الباكفو حريصة على إنجـاح المفاوضـات وذلك عندما عينت اثنين من المفاوضين عـرف عنهما أنهما من مؤيدى ومشـجعى الانفتاح على الغـرب، وهما إينو أوى كيونائـو Inoue Kyonao (١٨٠٩م – ١٨٦٧م) وإيواسـى تادانـارى Iwase Tadanori وكلاهمـا عين فى منصـب يوازى وزير خارجية اليابان فيما بعد. وبعد فترة من المفاوضات تم التوقيع بالفعل على معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية الأمريكية فى يوليو ١٨٥٨م، ولكن من الجدير بالذكر هنا أنه على الرغم من الجهود التى بذلها هوتَا ماسايوشى من أجل إنقاذ اليابان من مصير الصدام مع أمريكا، فإنه لم يستطع الحصول على موافقة البلاط الإمبراطورى على عقد المعاهدة، وكذلك انهزم فى عدة معارك سياسـية أخرى، وفى النهاية أمر المستشـار الأكبر إيينا أوسـوكى Iinao Suke (١٨١٥م – ١٨٦٠م) بتحديد إقامة هوتَا وإعفائه من كل مناصبه، وذلك بعد تعيينه مباشـرة فى منصب المستشـار الأكبر. ثم تولى الأخير مهمة إنفاذ المعاهدة مع الأمريكيين، ولكن بدون الحصول على موافقة البلاط الإمبراطورى.

٤ - معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية الأمريكية:

من الشخصيات التى أثرت تأثيراً عميقاً فى تاريخ اليابان الحديث يبرز لنا السياسى القوي والعنيد إيينا أوسيكى Iinao Suke، فبرغم حياته القصيرة التى لا تتعدى الخمسة والأربعـين عاماً، فإن مواقفه السياسـية الشـهيرة تظهره وكأنه عـاش حتى الثمانين. فهـو فى الثلاثين من عمره يتولى منصب حاكم مقاطعـة هيكونى Hikone فى محافظة شـيجا ثم فى عام ١٨٥٨م يصبح المستشـار الأكبر فى حكومة الباكفو وهو منصب يوازى منصب رئيس الوزراء فى الوقت الحاضر. وبمجرد وصوله إلى منصب «طايرو Tairo» أى المستشـار الأكبر، يقوم بعزل المستشـار المتردد هوتَا ماسايوشى. ثم بعد شهرين فقط من تنصيبـه وفى يونيو ١٨٥٨م يقوم بعقد معاهدة الصداقـة والتجارة اليابانية – الأمريكية وذلـك دون الحصـول على موافقة البـلاط الإمبراطورى. ثم بعد أشـهر قليلة ينتصر فى نزاعه ضد حزب هيتوتسوباشـى Hitotsubashi، ونجح فى تنصيب يوشيتومى (إيييتى موتشـى) فى منصب الشـوجون الرابع عشر وليس يوشـى نوبو الذى سيصبح الشوجون الخامس عشـر والأخير، ولكن بعد وفاة أييى موتشـى فى عام ١٨٦٦م فى أثناء حرب الباكفو ضد مقاطعة تشوشو Choshŭ.

هيـأت تلك الظروف السـابق ذكرهـا إلى جانب إلحاح القنصـل الأمريكى هاريس فى الإسـراع فى عقد المعاهدة مع أمريكا. وقد اسـتغل هاريس الظروف الدولية وخضوع الصين لكل من إنجلترا وفرنسا فى حث، بل وتخويف رجالات الباكفو على المضى قدماً من أجل إنفاذ المعاهدة. واستطاع هاريس أن يقنع الباكفو بدور أمريكا فى إصلاح ذات البين بين كل من اليابان من جهة وفرنسا وإنجلترا من جهة أخرى إذا ما دب الخلاف بينهما.

وعليه كان من رأى هاريس أنه ليس هناك ضرورة للانتظار حتى يوم ٢٧ يوليو، وهو اليوم الذى تحدد بين كلا الطرفين – اليابانى والأمريكى – من أجل التوقيع على المعاهدة. وبالفعل تم الانصيـاع لطلب هاريس هذا، وجرى التوقيـع على معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية – الأمريكيـة فى يوم ١٩ يونيو ١٨٥٨م على متن البارجة الأمريكية بوهاتان. وفى هذا بالطبع مغزى كبير فى طبيعة استخدام القوة العسكرية الأمريكية فى إجبار حكومة الباكفو على فتح أبواب اليابان لإقامة علاقات دبلوماسـية وتجارية فيها كثير من الإجحاف بمصالح اليابان الاقتصادية والسياسـية كما سنرى من تناولنا لمحتويات المعاهدة. وفى الحقيقة فقد استوعب إيينا أو سـيكى هو ومسـاعدوه من المفاوضين اليابانيين هذه الحقيقة المرة، ورضوا بأن تخسر اليابان اقتصادياً وسياسـياً على أن تفقد استقلالها وأمنها الداخلى كما حدث للصين. ويرى الكثير من الباحثين أن رجالات الباكفو وفقوا إلى حد بعيد فى هذا القرار. ولكن كان على إيينا أوسيكى أن يتخذ عدة قرارات حتى يقمع المعارضين وذلك فيما عرف بمحاكمة آنسى الكبرى وما كان من رد فعل عنيف من الغاضبين من هذه المحاكمة والذى سـوف ينتج عنه اغتيال المستشار الأكبر إيينا أو سيكى فى مارس ١٨٦٠م فيما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد.

محتويات المعاهدة:

تكونت معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية – الأمريكية من أربع عشـرة مادة. ومن أهم هذه المواد:–

١ – فتح المدن والموانئ التالية: كاناجاوا وناجاسـاكى ونييجاتا وهيوجو وإيدو وأوساكا أمام المواطنين والسفن الأمريكية.

٢ – جعل التجارة حرة أمام البضائع الأمريكية.

٣ – إقامة مناطق لسكن الأجانب فى اليابان، على أن يُحظر التجوال والرحلات على هؤلاء الأجانب إلا فى حيز ٤٠ كيلو متراً من مناطق وجودهم.

٤ – فـى حالة ارتكاب أى أجنبى لجريمة فـى محيط وجوده فإنه لا يخضع للقوانين اليابانيـة ولكن يخضع لقانـون بلده الأصلى، وتتم محاكمته أمـام قنصلية بلده وليس فى المحاكم اليابانية – أى ببساطة خلق بلد أجنبى داخل اليابان نفسه.

٥ – فيمـا يتعلـق بفرض الجمارك لا تسـتطيع اليابـان فرض الجمارك على السـلع باسـتقلالية بـل لابد لها مـن أن تتفاوض أولاً مع الدولة الأجنبية التى تصدر أو تسـتورد السـلعة قبل فرضها الضرائب والجمـارك، وفقدت بذلك مبدأ مهم فى المعاملات والقوانين الدوليـة وهو مبدأ حق فرض الجمارك بحريـة. وبذلك أصبح من حق الدول الأجنبية التى وقعـت معاهدات تجارية مـع اليابان أن تقرر جمارك منخفضة على بضائعها عند دخولها اليابان حتى تباع هذه البضائع بسهولة فى اليابان.

وهذه النقاط السـيئة بالنسـبة لليابان سواء فيما يتعلق بالمحاكم القنصلية أو بعدم حرية اليابان فى فرض الجمارك باسـتقلالية، إذا كانت قد اقتصرت على أمريكا فقط فربما هان أمرها، إلا أن المعاهدة التى أُبرمت مع أمريكا قد تم إبرام غيرها مع كل من هولندا وروسيا وإنجلترا وفرنسا، وبمواد وشروط معاهدة الصداقة والتجارة اليابانية الأمريكية نفسها، فيما عرف «بمعاهدات آنسى الخمس».

وعلـى أيـة حال، لم يكن أمـام حكومة الباكفو إلا أن تُقدم على إبـرام هذه المعاهدات الخمس، وإلا كان عليها أن تقبل المواجهة العسكرية ضد الدول الأوروبية وأمريكا. وكانت فى الغالب سـوف يكون مصيرها هو مصير الصين نفسـه، فقد وافقت الأخيرة على إبرام المعاهدات مع الدول الأجنبية ولكن بعد فقدها استقلالها وخسارتها للحرب. ولذلك جاءت بنود معاهدة "تنشين" الموقعة بين الصين والدول الغربية مجحفة إلى حد كبير إذا ما قارناها بمعاهـدات اليابـان مع الغرب. فمثلاً تم تقييد حرية الأجانـب فى الانتقال داخل اليابان إلا أن هـذا القيـد لم يكن موجوداً فى الصين وتمكن الأجانب فى الانتقال بكل الحرية عبر أراضـى الصين كلها. وفيما يتعلق بفرض الضرائب والجمارك كانت النسـب المفروضة فى حالـة الصـين ظالمة ومجحفة إلى حد بعيد وذلك بالمقارنة مع تلك التى فرضها الغرب على اليابان. ولكن الأهم من ذلك أن اليابان احتفظت باستقلالها ولم تقم قوات أجنبية بغزوها. وهذه النقطة بالذات تحسب للمستشار إيينا أويسكى، فربما لو احتلت اليابان لما استطاعت القيام بنهضتها الكبرى فى عصر ميجـى. أما فيما يتعلق بالبنود الظالمة والمجحفة بالنسبة

لليابان فقد أصبحت مشـكلة سياسـية كبرى واجهتها اليابان مع الدول الغربية فيما عُرف «بإصلاح المعاهدات» وقد تم بالفعل تحسـين معظم البنود لصالح اليابان، وهذا ما سـوف نتحدث عنه فى حينه.

٥ - محاكمة آنسى الكبرى:

مهما قلنا ومهما التمسـنا العذر لرجل الباكفو القوى إيينا أوسيكى فى اضطراره التوقيع على معاهدات آنسى الخمس، وحمايته بذلك اليابان من الاحتلال كما حدث للصين، فإن هـذا لم يمنع من وجود معارضة قوية وعنيفة، وعلى الأخص من الإمبراطور Kōmei الذى كان لا يوافق على فتح الموانئ والمدن أمام الأجانب، وكذلك لم تعجب هذه المعاهدات الظالمة لليابان جناح هيتوتسوباشى المناوئ فى الأصل لإيينا أوسيكى إلى جانب كراهيته للأجانب. ونستطيع القول إن الجناح المناوئ لإيينا أوسيكى وحزب المطالبين بالإصلاح والانفتاح على الغرب قد اتخذ هذه المعاهدات غير المتكافئة فرصة للهجوم عليهما. وبالفعل قام زعيم جناح الصقور المعروف بكراهيته للغرب طوكوجاوا نارى آكى بهجوم عنيف على إيينا أوسـيكى، بل حاول انتزاع منصب المستشار الأكبر من إيينا أوسيكى.

ولكـن وكما ذكرنا باختصـار من قبل، فقد اقتصر إيينا أوسـيكى على الجناح المعارض له، واستطاع إقصاء المستشار هوتَا ماسايوشى وبذلك ضرب عصفورين بحجر واحد. فهو من ناحية استطاع التخلص من أخلص معاونى حزب هيتوتسوباشى المعارض له، وكذلك جعل من هوتَا كبشـاً للفداء، وأظهره كما لو كان هو المسـئول عن توقيع تلك المعاهدات المجحفة باليابان. ومن ناحية أخرى اسـتطاع إيينا أوسـيكى أن ينتصر فى معركة تنصيب الشوجون الرابع عشر. فقد كان الشوجون الثالث عشر وهو طوكوجاوا إيمى سادا Tokugawa Iesada عليـلاً منذ ولادته. وكان واضحاً للعيان أنه لن يعيش طويلاً، وبالفعل توفى وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره (١٨٢٤م – ١٨٥٨م) دون أن ينجب. وهنا ظهرت مشكلة خلافته؛ ففى حين تبنى كل من شـيمازو نارى أكيرا حاكم مقاطعة ساتسـوما وياما أوتشـى (١٨٢٧م – ١٨٧٢م)، وتوشـى شيجى حاكم توسا، وماتسـو دايرا يوشى ناجا حاكم مقاطعة إتشى زن تبنوا هؤلاء جميعاً محاولة تنصيب أحد أبناء عائلة هيتوتسوباشـى وهو يوشـى نوبو، على أسـاس أنه الأكبر سـناً والأقدر على تولى مهام الشوجون الجسام. ولكن على الجانب الآخر تولى إيينا أوسيكى مهمة تنصيب توكوجاوا يوشى تومو على الرغم من صغر سنه (١٢ عاماً)

وعدم درايته بأمور الحكم، وذلك على أساس أنه الأقرب فى النسب من الشوجون الثالث عشر. وبالفعل انتصر إييناً أوسيكى فى معركة توليه الشوجون الرابع عشر. وفى حين أن الكثيرين من الباحثين يرون أن إييناً أوسيكى كان مضطراً لتوقيع المعاهدات المجحفة لليابان المعروفة بمعاهدات آنسى الخمس. فإنه لم يكن مضطراً لتعيين شخص مثل يوشى تومو الذى أصبح الشوجون الرابع عشر، وهو مازال فى الثانية عشرة من عمره إلا لأسباب شخصية تتبلور فى رغبة إييناً أوسيكى فى تعيين خيال للمآتة وليس شوجون قويًا يحد من سلطاته وبالتالى يستطيع إييناً أوسيكى فرض كل إرادته، وإدارة دفة البلاد كما يحلو له.

وهكذا وعبر خطوتين مهمتين فى تاريخ اليابان، وهما توقيع معاهدات آنسى وتنصيب الشوجون إييموتشى أوجد إييناً أوسيكى معارضة شديدة له، وتركزت هذه المعارضة فى الإمبراطور كومى الذى غضب غضباً شديداً لتوقيع إييناً أوسيكى للمعاهدات بدون الحصول على إذنه، وكذلك غضبت مقاطعة ميتو (جزء من محافظة إيباراكى حالياً) التى كانت ترغب فى تنصيب ابنها يوشى نوبو فى منصب الشوجونيه، إلا أن إييناً أوسكى خذلها. وكان أن تعاون كل من البلاط الإمبراطورى ومقاطعة ميتو لإسقاط إييناً أوسيكى على الرغم من أن مقاطعة ميتو هى فى الأصل تابعة لحكومة البكفو وليس للإمبراطور، ولكن تطور الأحداث وعناد إييناً أوسيكى قربا بين الفريقين. ومما زاد المعارضة ضده هو ممارسته للضغوط الشديدة على المعارضين وشنق بعضهم وسجن وتحديد إقامة البعض الآخر، وكذلك نفى عدد آخر إلى الجزر النائية فيما عرف بمحاكمة آنسى الكبرى.

فى بداية الأمر تم تقديم المقبوض عليهم إلى الاستجواب والمساءلة فى فبراير ١٨٥٩م. وحتى تسير المحاكمة سيراً عنيفاً كما أراد لها إييناً أوسيكى فقد تم استبعاد المعسكر الذى يدعو إلى التأنى فى إصدار الحكم وكذلك تم إبعاد هؤلاء الذين كانوا ينادون باستعمال الرأفة مع المتهمين، وبالطبع استبقى إييناً أوسيكى الجناح المتشدد الذى يطالب بإيقاع أقسى عقوبة على المتهمين.

فى البداية وجه الاتهام لعدد من معارضى الباكفو من حزب هيتوتسوباشى – مثل طوكوجاوا أكينارى وماتسودايرا يوشيناجا وغيرهما بأنهم اجتاحوا قلعة إيدو بدون إذن فى الوقت غير المعتاد للتواجد فى إيدو، وتم عقابهم بتحديد إقامتهم. ولكن البسطاء من المحاربين والعلماء تلقوا أعنف العقوبات وذلك بإعدامهم أو موتهم فى السجن. ومن هؤلاء

العالم والمحارب يوشيدا شوإين (١٨٣٠م – ١٨٥٩م) ومثيله أوميدا أونبين (١٨١٥م – ١٨٥٩م) وغيرهما وعددهم ثمانية. وكانت هناك عقوبات خفيفة إلى حد ما مثل النفى إلى جزر بعيدة وحلق الشعر، وكان ذلك آنذاك شيئا لا يستهان به. ووصل عدد من تلقوا مختلف العقوبات إلى مائة شخص.

ولكن الملاحظ فى هذه المحاكمة أن كثيراً من الذين تلقوا العقاب كانوا من العلماء والكتاب والمستنيرين، وهذا ما أفقد حكومة الباكفو عناصر مثقفة ومستنيرة، مما أدى بالتالى إلى إضعافها.

وبالطبع لم تكن هذه المحاكمة الظالمة لتذهب دون ظهور صدى وتأثير عميقين لها. وهذا بالفعل ما حدث فى يوم ٣ مارس ١٨٦٠م حينما توجه ثمانية عشر محاربًا – كلهم من مقاطعة ميتو عدا محاربًا واحدًا من مقاطعة ساتسوما (كاجوشيما الحالية). توجهوا جميعاً إلى بوابة ساكورادا مون Sakurada mongai حيث توقعوا مجيء القائد إيينا أوسيكى وموكبه يبغون اغتياله. وهذا بالفعل ما نجحوا فيه وكان عمر إيينا أوسيكى آنذاك ٤٦ عاماً. وهذه الحادثة أحدثت صدمة كبيرة لسكان عاصمة الباكفو إيدو. وعرفت هذه الحادثة باسم البوابة التى حدثت عندها وهى إحدى بوابات قلعة إيدو. وكان لاغتيال إيينا أوسيكى أعمق الأثر فى مصير حكومة الباكفو، حيث إنها اعتبرت نهاية لاستبداد الباكفو والبداية الحقيقية لانهيارها.

بعد اغتيال إيينا أوسيكى لم يكن أمام قواد الباكفو، وفى طليعتهم مستشار الشوجون أندو نوبو ماسا (١٨٢٠م – ١٨٧١م) إلا القيام بعدة إجراءات لإصلاح ما أفسدته سياسة إيينا أوسيكى المتعنتة سواء فيما يتعلق بالعلاقة مع البلاط الإمبراطورى التى ساءت بسبب توقيع المعاهدات مع الغرب دون الحصول على إذن البلاط، وكذلك العلاقة مع المقاطعات التى تنادى بالإصلاح والتى كذلك رشحت لمنصب الشوجون الرابع عشر طوكوجاوا يوشينوبو، ولكنها فشلت أيضاً بسبب تعنت إيينا أوسيكى وكانت أول خطوة قام بها نوبوماسا هى إعادة المستشار كوزى هيروتشيكا Kuze Hirochika (١٨١٩م – ١٨٦٤م). والذى كان يتولى منصب المستشارية لحكومة الباكفو لمدة ٧ سنوات قبل أن يطرده إيينا أوسيكى منها بسبب مشكلة خلافة الشوجون، حيث كان كوزى يؤيد جناح هيتوتسوباشى فى موقفه من تنصيب يوشينوبو. وعندما عاد كوزى إلى ملعب الشوجونيه أمر على التو بوقف قرار إيينا

أوسيكى الذى يقضى بتحديد إقامة كل من طوكوجاوا يوشى كاتسو وطوكوجاوا يوشينوبو وغيرهما ممن حُددت إقامتهم.

وفى هذه الأثناء كانت النتائج السيئة للانفتاح التجارى قد بدأت فى الظهور وارتفعت الأسعار بطريقة فجائية مما زاد من نفوذ الجناح المناوئ للأجانب والذين كانت حجتهم قوية فى أن التجارة هى عصب الاقتصاد فى اليابان فإذا ساءت أحوالها فليس هناك بعد ذلك ما يصلح لليابان. وقد ارتبطت فكرة كراهية الأجانب وطردهم من اليابان مع الاحترام والتبجيل للإمبراطور فيما عرف بفكرة الـ Sonnōjoi. وهنا فكّر قادة الباكفو فى عمل شىء ما يوحد الأمة التى اختلفت بسبب معاهدات آنسى الخمس. وكذلك من أجل استرجاع هيبة الباكفو وسلطاته. فخرجت إلى النور فكرة الزواج ما بين البلاط الإمبراطورى (Kō) والحكومة العسكرية (Bu) فيما عرف بسياسة دمج البلاط الإمبراطورى مع الباكفو (Kōbu Gattai). وتتلخص هذه السياسة فى تزويج أخت الإمبراطور كومى – والد الإمبراطور ميجى – وهى الأميرة كازونوميا (١٨٤٦م – ١٨٧٧م) بالشوجون طوكوجاوا أييى موتشى. ولكن كانت هناك مشكلة، فقد كانت الأميرة كازونوميا مخطوبة، أو بمعنى أدق «مقروء فاتحتها» بالمعنى العربى منذ أن كانت فى السادسة من عمرها للأمير طاروهيتو (١٨٣٥م – ١٨٩٥م)، بل كان موعد الزواج قد تحدد بالفعل. وكان يبدو وللجميع آنذاك أن حباً وإعجاباً واضحين سكنا فى قلبى الأميرين. وعلى الرغم من ذلك مضت الباكفو فى سعيها لإتمام زواج الأميرة بالشوجون، واستخدمت كل الوسائل من أجل إبعاد الأمير طاروهيتو عن محبوبته كازونوميا. فأبعدت كل المعارضين من رجال البلاط عن مناصبهم. وكما استخدمت العصا مع المعارضين استخدمت أيضاً الجزرة مع الراغبين فى وعودها. فهى مثلاً تعد السياسى ورجل البلاط الشهير إيواكورا طوموميى (١٨٢٥م – ١٨٨٣م) بأنها سوف تحدد أجلاً لطرد الأجانب، وعلاوة على ذلك فقد عينت أختى إيواكورا الصغيرتين فى وظيفة وصيفات بالبلاط الإمبراطورى.

وهكذا استطاعت الباكفو عبر كل الوسائل أن تتم زواج البلاط الإمبراطورى بالحكومة العسكرية (الباكفو). ولذلك انتقد هؤلاء الذين يعتقدون فى مبدأ طرد الأجانب وتبجيل الإمبراطور انتقدوا بشدة موقف الباكفو وعلى الأخص المستشار إندو نوبوماسا Ando Nobumasa (١٨١٩م – ١٨٧١م) الذى كان يعتبر مهندس سياسة دمج البلاط بالباكفو.

وكان لغضبهم نتيجة سيئة إلى حد كبير حيث قام ٧ من المحاربين، معظمهم من مقاطعة ميتو فى ١٥ يناير ١٨٦٢م بمهاجمة أندو وجرحه، ولكنهم لم يستطيعوا اغتياله، كما كانوا يخططون. وقد حدثت هذه الواقعة عند بوابة ساكشيتامون Sakashitamon بقلعة أيدو. وبسبب هذه الحادثة – التى عرفت باسم البوابة التى وقفت عندها – ابتعد أندو عن حلبة الباكفو بعد ثلاثة أشهر فقط من إصابته.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الأميرة كازونوميا كانت ذات طبع هادئ وخلق، محبوبة من الجميع، وكانت تجنح للسلام فبعد موت زوجها الشوجون إييموتشى فى عام ١٨٦٦م – أى بعد زواجهما بأربع سنوات فقط – اعتزلت الحياة العامة وحلقت شعرها. ولكنها قامت بدور مهم فى عام ١٨٦٨م من أجل تسليم قلعة إيدو لجيش الحكومة الجديدة دون إراقة دماء. وبذلك انتهى تماماً عصر طوكوجاوا باكفو وبدأ عصر ميجى. ولذلك يحتفظ لها التاريخ اليابانى بذكرى عطرة.

٦- إصلاح بونكيو Bunkyu no Kaikaku :

عندما فشلت محاولة الباكفو فى تحقيق سياسة الدمج بينها وبين البلاط الإمبراطورى، كان لابد أن تقوم بهذه المحاولة جهة أخرى حتى لا تسوء أحوال البلاد وتنتشر الفوضى. وتصدى لهذه المهمة والد حاكم مقاطعة ساتسوما شيمازو هيساميستو. إلا أن المشكلة أن شيمازو نفسه كان قد حضر على رأس قوة من مقاطعته ساتسوما رافعاً شعار مناصرة الإمبراطور وطرد الأجانب. ولكن حدث ما لا يحمد عقباه، فقد ثارت جمعية المحاربين المؤمنين والمنادين بهذا المبدأ وتمادوا فى طلبهم لكى يصل إلى إسقاط حكومة الباكفو ذاتها فى إيدو، وهذا ما لم يكن هيساميتسو يريده، فقد كان ينشد اتحاد واندماج البلاط الإمبراطورى مع الباكفو فى سياسة توحد البلاد (Kōbu Gattai). وحتى يخمد هيسا ميتسو هذه الفتنة هاجم هؤلاء المطالبين بإسقاط الباكفو حيث كانوا مجتمعين فى ملهى يدعى «ترادايا Yeradaya» بكيوطو فقُتل ثمانية محاربين من ساتسوما وذلك فى مساء ٢٣ إبريل ١٨٦٢م، ولكن على أيدى محاربين من المقاطعة نفسها، ولذلك عرف هذا الحادث باسم المكان الذى كان يجتمع فيه المتآمرون. أما الباقون من الذين بقوا على قيد الحياة وعددهم ٢٢ محاربًا فقد عادوا إلى ساتسوما وحُددت إقامتهم. وكانت نتيجة هذا الحادث أن تلاشت الدعوة إلى تبجيل الإمبراطور وطرد الأجانب من مقاطعة ساتسوما تماماً.

وتبعاً لذلك نال شيمازو هيساماتسو ثقة الإمبراطور لما أظهره من قدرة على قمع المطالبين بإسقاط الباكفو، فأمره بالذهاب إلى أيدو حيث مركز الباكفو لإقناع قادتها بتنفيذ الوعد بإعلاء كلمة الإمبراطور (Sonnō) وطرد الأجانب (Jōi)، وكذلك إجراء الإصلاح فيما يتعلق بسياسة دمج البلاط الإمبراطورى بالحكومة العسكرية. وكانت نتيجة هذه المهمة باهرة بحق. فقد تمت عدة إجراءات إصلاحية عديدة كان معظمها فى صالح الإمبراطور ومنها تعيين يوشينوبو الذى كان مرشحًا لمنصب الشوجون الرابع عشر فى منصب خليفة الشوجون أو بالأحرى تعيينه نائباً له. وتعيين ماتسودايرا يوشيناجا Matsudaira Yoshinaga (١٨٢٨م – ١٨٩٠م) حاكم مقاطعة إيتشى زن السابق فى منصب المنسق العام لسياسة الباكفو، وبذلك تم تعيين اثنين من كبار المؤيدين لسياسة تبجيل الإمبراطور فى مناصب مؤثرة وخطيرة فى قلب الباكفو، مما سوف يكون له أكبر الأثر فى استعادة سلطات الإمبراطور بعد إسقاط الباكفو مباشرة فى عام ١٨٦٨م.

ولم يألُ ماتسودايرا يوشيناجا جهداً من أجل إصلاح أمور الباكفو فقام بعدة إجراءات إصلاحية وأهمها ما يلى:-

١ – عمل تصفية لموظفى الباكفو والاستغناء عن هؤلاء الزائدين عن الحاجة ولا يأتى منهم فائدة تذكر. وإنشاء وظيفة خاصة من أجل حماية كيوطو.

٢ – القيام بإصلاحات جوهرية من أجل إصلاح نظام تناوب الدايموات المعروف بـ (SankinKotai) وهو نظام عتيق وبيروقراطى كان هدفه إرهاق الدايموات ووضعهم تحت ملاحظة حكومة إيدو حتى لا ينقلبوا عليها. وكان يتم كل عام، وبمقتضاه كان لابد لحكام الأقاليم أن يذهبوا على رأس حاشية كبيرة مرة كل عام إلى إيدو ليمثلوا أمام الشوجون ويقدموا له التقارير. وحَسَب هذا النظام كان على الدايميو أن يضع أسرته رهينة فى يد الباكفو حتى تضمن ولاءه لها. وطبقاً للإصلاح الجديد فإن هذا التناوب أصبح يتم كل ثلاث سنوات وليس كل عام، كذلك سمح النظام الجديد بعودة زوجة الدايميو وأولاده إلى مقاطعته.

٣ – أما الخطوة الثالثة وهى الأهم والأخطر فكانت تتعلق بإصلاح النظام العسكرى اليابانى، فوفق هذه الخطوة يتم تقسيم الجيش اليابانى إلى جيش برى وجيش بحرى. ويتم وضع لكل من الجيشين قيادة ووزارة خاصة بهما. ثم تم تشكيل الجيش العامل

من أجل خدمة الجيشين. كذلك قامت الباكفو بطلب إحضار بوارج حربية من كل من الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا وكذلك تم إرسال طلبة مبعوثين إلى هولندا لدراسة النظم العسكرية.

٤ – أما فيما يتعلق بإصلاح النظام التعليمى، فقد تم إدخال النظم التعليمية والتربوية الغربية الحديثة.

ولأن هذه الإصلاحات تمت فى فترة بونكيو طبقاً للتقويم اليابانى القديم فقد تم تسمية الإصلاح الذى حدث بها على اسمها، فأطلق عليها إصلاح بونكيو. وهذه الفترة تقع ما بين أعوام ١٨٦١م و١٨٦٤م.

وبعد أن أنهى هيساميتسو مهمته بنجاح فى أيدو، تركها متجهاً نحو الغرب، وفى طريقه إلى كاناجاوا، وبالقرب من مدينة يوكوهاما مر على قرية صغيرة تسمى ناماموجى Namamugi وعندها وقع حادث لم يكن فى الحسبان، وكان ذلك فى يوم ٢١ أغسطس ١٨٦٢م. فجأة قطع موكب هيساميتسو أربعة من الإنجليز وهم يمتطون صهوة جيادهم. فاعتُبر ذلك من جهة حاشية هيساميتسو وصحبه نوعاً من الاستهانة وقلة الذوق، فما كان من جنود هيساميتسو إلا أن قاموا بقتل أحدهم وجرح ثلاثة من بين الأربعة.

وبالطبع لم يكن هذا الحادث ليسعد هيساميتسو، فهو يقدر سطوة الإنجليز وقوتهم، وهو أيضاً توقع ألا تسكت إنجلترا على هذا الحادث، خاصة أن هناك عدة حوادث لقتل عدد من الأجانب وجرحهم حدثت خلال العامين الفائتين كانت قد جلبت على اليابان مشاكل دبلوماسية مع الدول الأجنبية. فبعد افتتاح ميناء يوكوهاما كانت تصرفات الأجانب تتسم بالتعالى والعنف فى الوقت ذاته وقد غضب اليابانيون بسبب هذه التصرفات أيما غضب، وقاموا من خلال أربع حوادث حدثت فى خلال ستة أشهر فقط بقتل ستة من الأجانب. وفى ديسمبر من عام ١٨٦٠م قام عدد من محاربى ساتسوما بقتل مترجم القنصل الأمريكى، ولم يمر أكثر من ٦ أشهر حتى استهدف عدد من محاربى مقاطعة ميتو القنصلية الإنجليزية وجُرح اثنان من موظفى القنصلية. وفى مايو ١٨٦٢م وقبل حادث ناماموجى بثلاثة أشهر فقط، استهدف الحارس اليابانى الذى جاء خصيصا من مقاطعة ماتسوموطو لحراسة معبد طوزنجى (Tōzenji) حيث كان مقراً للقنصلية الإنجليزية استهدف القنصل الإنجليزى محاولاً قتله ولكنه فشل فى ذلك فأقدم على الانتحار.

وهكـذا ولتكرار حوادث قتـل الأجانب وجرحهم أصبح من المتوقـع أن تتخذ إنجلترا والـدول الأخـرى موقفاً متشـدداً رداً على هذه الحادثة. ولكن الرد جـاء فى البداية عفوياً من قِبل الأجانب بمدينة يوكوهاما الذين انتابتهم غضبة شـديدة جداً وطالبوا الدبلوماسيين الأجانـب جميعاً باتخاذ إجراء شـديد رداً على ذلـك. وبالفعل تجمع عدد كبير من جنود البحرية الإنجليز والفرنسيين والهولنديين يتقدمهم القنصل الإنجليزى وطالبوا بالقبض على هيساميتسـو، ولكن الوزير المفوض الإنجليزى هدأ من روعهم ورفض اسـتخدام القوة على أسـاس أن ذلك ليس وقته وأن اسـتخدام القوة سوف يُعقّد الأمور، وبالطبع كان هذا الوزير المفوض لا يريد اتخاذ قرار أو إجراء دون الرجوع للمسـئولين فى إنجلترا نفسـها. وبالفعل جاءه الأمر من حكومته فى فبراير من عام ١٨٦٣م (٣ من بونكيو) شاملاً المطالب الإنجليزية لحكومة الباكفو وهى:-

١ - تقديم الاعتذار مع دفع تعويض قيمته مائة ألف جنيه.

٢ - عقاب الجانى فى مقاطعة ساتسوما أمام الضباط الإنجليز.

٣ - دفع ٢٥ ألف جنيه تعويضات لأسرة القتلى والجرحى.

وقد أوضحت الحكومة الإنجليزية من خلال وزيرها المفوض أنها سوف تلجأ لاستعمال القـوة إذا لم توافـق حكومة الباكفو على هذه المطالب. وبالفعل تدفقت عشـر بوارج حربية ضخمة إلى ميناء يوكوها واسـتعدت لاسـتخدام القوة إلا أن مسـئولى مقاطعة ساتسوما ردوا بعنجهية ونفوا المسئولية عنهم مما سوف يترتب عليه وقوع الحرب بين ساتسوما وإنجلترا (Satsuei Sensō) فى شهر يوليو ١٨٦٣م فيما سوف نتحدث عنه فى حينه بعد قليل.

٧ - أول مواجهة عسكرية بين اليابان والغرب:

فى هذه الأثناء انتقلت بؤرة الأحداث الملتهبة من ساتسوما إلى مقاطعة تشوشو chōshu (محافظة كاجوشـيما). فقد ألهبت حادثة ناما موجى مشاعر الحزب الثائر على الأجانب فى تشوشـو. ثم اتحدت مشـاعر هذا الحزب ومطالبه مع النبلاء فـى البلاط الإمبراطورى الذين يدعون للمطالب نفسـها، ويجد البلاط الإمبراطورى نفسـه فى موقف قوى بسـبب هـذه المناصرة، وعليه فهو ينتفض ويطالب بقوة حكومة الباكفو لكى تطرد الأجانب وتعود لتطبيق سياسـة العزلة. وعلى الرغم من عدم وجود النية لدى الباكفو لطرد الأجانب فإنها تحت ضغط البلاط الإمبراطورى والمتحمسـين فى مقاطعة تشوشـو، لم تجد مفرا من إصدار

أمر فى ٢١ إبريل ١٨٦٣م جعلت فيه يوم ١٠ مايو، أى فى خلال أقل من شهر واحد هو آخر موعد لطرد الأجانب من اليابان، بل أرسلت خطابا بهذا الأمر إلى مختلف المقاطعات حتى تقوم بتنفيذه.

وكأن مقاطعة تشوشو كانت تنتظر يوم ١٠ مايو على أحر من الجمر، فما إن جاء هذا اليوم حتى كانت تشوشو تبدأ هجومها على السفن الأجنبية الموجودة فى سواحلها. فقد اتفق أن سفينة تجارية أمريكية كانت ترسو فى خليج شيمونوسيكى دون أن تعلم شيئاً عن الميعاد المحدد لعدم وجود الأجانب باليابان أو سواحلها. وعلى الفور قامت المدفعية الخاصة بتشوشو فى ضرب هذه السفينة بالقنابل. وبرغم دهشة السفينة وانزعاجها الشديد لهذا الضرب المفاجئ فإنها استطاعت أن تهرب بعيداً. وفى يوم ٢٣ من الشهر نفسه هوجمت سفينة فرنسية وبعد ذلك بثلاثة أيام فقط تم ضرب سفينة هولندية بمدافع تشوشو.

فرحت تشوشو بهذا الانتصار الخافت، ولكن سرعان ما جاءت البوارج الحربية القريبة للانتقام مما فعلته تشوشو. فى البداية جاءت بارجة حربية أمريكية فى اليوم الأول من شهر يونيو، وبعد ذلك جاءت بارجتان فرنسيتان فى يوم ٥ يونيو إلى شيمونوسيكى وقامت البوارج مجتمعة بضرب طوابى تشوشو. وتم إغراق سفينتين حربيتين لتشوشو، ثم نزل نحو مائتين وخمسين جنديًا فرنسيًا إلى الشاطئ وحطموا الطوابى، ثم قاموا بإحراق ما يزيد على عشرين بيتا من بيوت الأهالى.

والغريب هنا أن مقاطعة تشوشو فقط هى التى أقدمت على طرد الأجانب وكأنما معركة طرد الأجانب معركتها هى فقط، فلم تقدم الباكفو أو أية مقاطعة أخرى على خطوة طرد الأجانب، ربما لعلمهم أن ذلك من قبيل المستحيل نظراً لتفاوت مستوى القوة بينهم وبين البلاد الغربية.

ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن حكومة الباكفو قامت بدفع التعويضات التي طلبتها إنجلترا بسبب حادثة ناماموجى التى وقعت قبل عام من هذه الأحداث فإن إنجلترا أبت إلا أن تنتقم من مقاطعة ساتسوما، فلم يمر سوى شهر واحد حتى جاءت إنجلترا بأسطول مكون من سبع قطع بحرية إلى خليج كاجوشيما، وبدأت الحرب بين إنجلترا وساتسوما ولم يكن قد مر شهر على هجوم السفن الغربية على زميلتها فى الهدف نفسه

وهى بالطبع مقاطعة تشوشـو، وكأن الدول الغربية أبت إلا أن تلقن هاتين المقاطعتين درساً قاسياً حتى لا تطالبا مرة أخرى بطرد الأجانب.

على أية حال، لم تصمد مدافع ساتسوما أمام مدافع البوراج الإنجليزية، وأحرقت معظم قلاع المدينة وتلقت مدينة كاجوشيما خسائر رهيبة. وهكذا وفى فترة زمنية وجيزة من عام ١٨٦٣م أدركت كل من ساتسـوما وتشوشـو مدى قوة الغرب العسكرية، وكان من الطبيعى أن تخفت نبرة المعاداة للأجانب وطردهم فى هاتين المقاطعتين اللتين رفعتا لواء هذا المبدأ.

إلا أن اتفـاق كل من ساتسـوما وتشوشـو فى هدف طرد الأجانب مـن اليابان لم يمنع من تنافسـهما على السـلطات داخل البلاط الإمبراطورى، وذلك ما أدى إلى حدوث حركة «١٨ أغسطس». وهذه الحركة حدثت فى ذلك اليوم من عام ١٨٦٣م (٣ من بونكيو)، وفى هذه الحركة تمكن المعسـكر الذى ينادى بالتنسـيق بين البلاط والباكفو، وهو المعسكر الذى تقوده كل من مقاطعتى أيزو Aizu (محافظة فوكوشـيما) وساتسوما، تمكن هذا المعسكر من طرد معسـكر تشوشو المتشـدد من العاصمة كيوطو، وذلك حينما هاجم محاربو هذا المعسكر محاربى مقاطعة تشوشـو وهزيمتهم، مما أدى إلى نزع مهمة حماية القصر الإمبراطورى من مقاطعة تشوشو، وبالتالى ارتفاع اللواء المنادى بالاندماج بين القصر والباكفو. وكذلك تم إبعاد أتباع تشوشـو وإرجاعهم إلى مقاطعتهم مع سـبعة من النبلاء الذيـن كانوا يناصرونهم وفى مقدمتهم الأمير سانجى سانى تومى Sanji Sanetomi (١٨٣٧م – ١٨٩١م)، وبذلك انتصر معسكر ساتسوما المنادى بتبجيل الإمبراطور وطرد الأجانب ولكن على أساس إصلاح حكومة الباكفو وليس إسقاطها كما كان ينادى جناح تشوشو.

٨ - واقعة فندق إيكيدا وبوابة هاماجورى:

ولكن على الرغم من سـقوط نفوذ مقاطعة تشوشـو فى كيوطو، فإن هذا لم يمنع الدعوة لإسقاط حكومة الباكفو بين بعض المحاربين فى عاصمة البلاد كيوطو. وبالفعل اتخذ هؤلاء المحاربـون المعارضـون للباكفو من الفندق اليابانى التقليـدى «إيكدا» مقراً لهم يعقدون فيه اجتماعاتهم السرية. وقد قامت هذه المجموعة بعقد اجتماع فى الخامس من يونيو ١٨٦٤م، وناقشـت المجموعة فى هذا الاجتماع ابتداء التحرك للسيطرة على كل كيوطو، إلا أن هذه الخطة تم التعرف عليها من جانب الجماعة الموالية للباكفو التى كانت تتحكم بالفعل فى أمن المدينـة. ثم باغتت جماعـة «الشينسـن جومى Shinsengumi» بقيادة كوندو إيسامى

Kondo Isami (١٨٣٤م – ١٨٦٨م) المجموعة المناهضة للباكفو فى فندق إيكيدا فى اليوم ذاتـه. وبعـد معركة حامية الوطيـس قُتل ٧ من المحاربين من بينهـم قائدان من كل من كوماموطو وتشوشو. وبذلك تكون الجماعة المناوئة للباكفو قد تلقت ضربة موجعة واستطاعت جماعة الشنسن جومى بعد هذا الانتصار أن تحقق سلطات أوسع من أجل تعقب المحاربين الراغبين فى إسقاط الباكفو.

كان ارتفاع أسـهم مقاطعة ساتسـوما فى كيوطو وقيادة محاربيها لحركة ١٨ أغسـطس السـبب الكافى لإغضاب مقاطعة تشوشـو المنافس اللدود لها. ولذلك أرادت تشوشو الانتقام لنفسها واستعادة دورها المفقود فى كيوطو، وعليه فقد تقدمت قواتها التى تعد بالمئات والتى كانت متمركزة لتوها فى أوساكا بعد حادثة إكيدا تقدمت نحو كيوطو فى شهر يوليو ١٨٦٤م مطالبة باسـتعادة دورها فى حراسـة القصر الإمبراطورى وفك حصار النبلاء السبعة المبعدين عن العاصمة منذ حادثة إكيدا. ثم حدث ما كان متوقعاً فقد تصادمت قوات تشوشو مع قوات كل من ساتسوما وأيزو اللتين تقومان بحراسة العاصمة (كيوطو آنذاك) والقصر الإمبراطورى. بـل لقد حـدث التصادم فى كل أنحاء العاصمة تقريباً، ولكـن الصدام الأكبر والأعنف كان بالقـرب مـن بوابة هاماجورى التى تطل على الشـارع الشـهير كاراسـوما، ولذلك سميت هـذه المعركة التى دارت بين القوتين المتصارعتين باسـم هذه البوابة «Hamagurigomon nohen»، ثم مالبثت أن انهزمت تشوشـو فى كل أنحاء المدينة. وراح ضحية هذه المعارك عـدد مـن قادة الحملة من أجل طرد الأجانب وإسـقاط الباكفو فـى مقدمتهم ماكى إيزومى (١٨١٣م – ١٨٦٤م). وقد أدت هذه المعركة إلى ازدياد العداء بين كل من تشوشو وساتسوما على الرغم أنهما ابتدأتا على هدف واحد وهو تبجيل الإمبراطور وطرد الأجانب.

وكأن الأحداث أبت إلا أن تزيد أحزان تشوشـو على أحزانها السـابقة نتيجة هزيمتها فـى معركة هاماجورى. فبعد هذه الهزيمة مباشـرة أمرت حكومـة الباكفو فى إيدو إحدى وعشـرين مقاطعة فى غرب اليابان بالهجوم على تشوشـو تحت قيادة حاكم مقاطعة أوارى السابق طوكوجاوا يوشـى كاتسو Tokugawa Yoshikatsu (١٨٢٤م – ١٨٨٣م)، إلا أن هذه الهجوم لم ينفذ بالفعل.

ومما زاد من وطأة الأحداث على تشوشـو ذلك الهجوم الذى قامت به أربع دول غربية هى إنجلترا وأمريكا وفرنسا وهولندا، وذلك رداً على الإجراءات التى اتخذتها المقاطعة فيما

يتعلق بموضوع طرد الأجانب فى العام السابق (١٨٦٣م)، وفى هذا الهجوم احتلت القوات الأجنبية طوابى مدينة شيمونوسيكى وأحدثت دماراً رهيباً بالمدينة.

وهكذا وجدت تشوشو نفسها تتلقى الضربات من الداخل ومن الخارج على السواء، فلم يكن أمامها سوى الاستسلام. وبالطبع كان هذا الهجوم لصالح الباكفو حيث إنه أضعف أشد أعدائها، ولم تجد الباكفو فائدة من الهجوم على تشوشو حيث قام بهذا الدور الدول الغربية فانتهى ما تعارف عليه فى التاريخ اليابانى باسم «الإخضاع الأول لتشوشو» دون استخدام فعلى للقوة من جانب الباكفو. وحُفظت إلى حين سطوة الباكفو وسلطاته وانخفضت أصوات المتشددين من المطالبين بإسقاط الباكفو أو هكذا بان للعيان، إلا أن هذا سيثبت عدم صحته مع مرور سنوات قليلة فيما بعد وهذا ما سوف نراه فيما يلى من أحداث.

وعلى أية حال، فقد أدت هذه الظروف الصعبة التى أحاطت بمقاطعة تشوشو (محافظة ياما جوتشى) إلى إمساك المجموعة المهادنة للباكفو بمقاليد الأمور فى المقاطعة، وحاولت إرضاء الباكفو بكل جهدها. فقامت بالقبض على سبعة من المسئولين عن حادثة هاماجورى، وأجبرت ثلاثة منهم على الانتحار على طريقة شق البطن وأعدمت الأربعة الباقين، كذلك أجبرت حكومة الباكفو حاكم المقاطعة مورى تاكاتشيكا Mori Takashika على تقديم خطاب اعتذار لما بدر من مقاطعته من عصيان حيالها.

٩ - كل الطرق تؤدى إلى إسقاط الباكفو:

لقد شكلت الأحداث التى وقعت فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من عمر الباكفو الأسباب الرئيسية لانهيار هذا النظام الذى استمر لنحو مائتين وستين عاماً منذ أسسه الشوجون طوكوجاوا إيياسى Tougawa Ieyasu (١٥٤٢م – ١٦١٦م). وقد تمثلت هذه الأحداث فى شكل داخلى وآخر خارجى فى الوقت ذاته بل لقد كان لتتابعها أيضاً أثره الكبير فى التعجيل بانهيار حكومة الباكفو.

فعلى الصعيد الداخلى تصاعد السخط على حكومة الباكفو فى مقاطعة تشوشو، وفشلت الباكفو فى حملتها الثانية التى بدأتها على تشوشو فى إبريل ١٨٦٥م، وانتهت إلى فشل وهزيمة نكراء أمام جيش تشوشو المسلح بالأسلحة الغربية، وذلك فى منتصف عام ١٨٦٦م. وعلى الصعيد الداخلى أيضاً عانت الباكفو من العديد والعديد من الثورات والهوجات بسبب نقص الطعام وغلاء الأسعار. أما على الصعيد الخارجى فقد واجهت مشاكل عديدة

وخاصة مع إنجلترا التى التقط قنصلها فى اليابان باكسى مدى ضعف الباكفو، فعملت على إحلال سلطات الإمبراطور بدلاً من الباكفو.

وهكذا لم يُعطِ تلاطم الأحداث وتدافعها سواء أكان داخلياً أم خارجياً الفرصة لحكومة الباكفو حتى تأخذ الفرصة لإعادة حساباتها واستعادة مجدها الذى أصبح أفوله حتمياً. ولكن كيف حدث هذا بالتفصيل: هذا ما سوف نتناوله فيما يلى:-

ففى تشوشو لم يستسلم المعسكر المتشدد تجاه الباكفو، وهذا المعسكر المتشدد كان يمثله صغار المحاربين من أمثال كاتسورا كوجورو Katsura Kogoro (١٨٣٣م - ١٨٧٧م) الذى تسمى فيما بعد باسم كيدو تاكا يوشى Kido Takayoshi. والطريف أن هذا الرجل هو جد للسياسى الشهير كيدو كوإيتشى (١٨٨٩م - ١٩٧٧م) الذى كان مستشاراً للإمبراطور هيروهيتو فى أثناء الحرب العالمية الثانية وكان من صقور الساسة اليابانيين، المساندين والمؤيدين للحرب ضد الحلفاء فيما بعد، أى أن الحفيد لم يختلف كثيراً عن الجد فى التشدد. وإلى جانب كاتسورا اشتهر أيضا تاكاسوجى شينساكو Takasugi Shinsaku (١٨٣٩م - ١٨٦٧م) وقد كان كذلك من الحزب المناوئ للأجانب ومناصرًا للإمبراطور، ولكن لوفاته المبكرة بسبب المرض لم يرَ سقوط الباكفو.

على الرغم من استسلام كبار رجالات مقاطعة تشوشو من حاكم المقاطعة إلى المسئولين الكبار فإن هذا المعسكر المتشدد لم يستسلم كما ذكرنا، وعلى الرغم من الظروف القاسية التى واجهت هذا المعسكر فقد صمم على مواصلة المسيرة ضد الباكفو. وكذلك لم ييأس هؤلاء المحاربون الصغار بعد هزيمة تشوشو فى معركتها أمام الأساطيل الغربية، بل وجدوا أن هناك ضرورة حتمية لتضافر جهود كل أطياف المقاطعة من محاربين ومزارعين وتجار وغيرهم، وذلك من أجل إنقاذ مستقبل هذه المقاطعة العنيدة. فكان أن تعاونوا جميعاً وأنشأوا جيشاً أطلقوا عليه اسم (القوات المباغتة - Kiheitai). وعبر عدة تجارب من الانتفاضات والثورات والمعارك العسكرية سواء ضد الباكفو أو ضد الغرب استطاع الجيش المباغت هذا أن يطور من نفسه وأن يزيد من عدد جنوده وعدد وحداته أيضاً. وبذلك استطاع تاكاسوجى وصحبه قيادة هذا الجيش للاستيلاء على قلاع مدينة هاجى فى شمال تشوشو. واستطاع هذا الجناح المتشدد أن يبعد الجناح المهادن من كبار المسئولين ثم يقبض على مقاليد الأمور فى المقاطعة. إلا أنه على الرغم من ذلك لم يكن يستطيع مواجهة الباكفو مواجهة صريحة

أو لعله أجل هذه المواجهة إلى وقت آخر. ولذلك فقد عمل هذا الجناح على التظاهر بالولاء والطاعة للباكفو وهو فى الحقيقة كان يهيئ نفسه للاستقلال عن الباكفو، فكان لابد له من تطوير قواته وتقويتها.

وبالفعل جاءت هذه الخطوة المهمة عن طريق مقاطعة ساتسوما، فقد تقربت ساتسوما إلى حد بعيد من إنجلترا بعد هزيمتها أمامها. ولذلك حصلت تشوشو على الأسلحة الإنجليزية الحديثة عن طريق ساتسوما، ويرجع الفضل فى التقارب ما بين ساتسوما وتشوشو بعد النزاع الطويل بينهما إلى المحارب الشهير ساكاموطو ريوما Sakamoto Ryoma (١٨٣٥م – ١٨٦٧م) وهو من مقاطعة طوسا (محافظة كوتشى).

على أية حال، استطاعت مقاطعة تشوشو الحصول على الأسلحة الإنجليزية عبر شركة نقل بحرى يديرها ساكاموطو ريوما فى مدينة ناجاساكى التى تقع فى مقاطعة ساتسوما (كاجوشيما) ثم حُملت هذه الأسلحة إلى تشوشو، وكان هناك فى ناجاساكى العديد من التجار الإنجليز حيث فتحت لهم ساتسوما أبوابها للتجارة، فقام هؤلاء التجار وأشهرهم تاجر يدعى جلوفر (Glover ١٨٣٨م – ١٩١١م) بإمداد تشوشو بأحدث الأسلحة الغربية.

ولكن فى جزيرة هونشو بعيداً عن ناجاساكى وتشوشو كانت الدول الأجنبية تلعب دوراً آخر من أدوار الاستعمار المستغل دائماً، فقد أغرت حالة الضعف التى آلت إليها حكومة الباكفو والتفكك الواضح بين مختلف الجهات اليابانية، أغرت الدول الغربية بممارسة ضغوطها على حكومة الباكفو، فتجمعت أساطيل دول التحالف الأربع إنجلترا وأمريكا وفرنسا وهولندا بطريقة فجائية فى خليج أوساكا فى سبتمبر ١٨٦٥م، وتقدمت الدول المتحالفة بمطالب ثلاثة هى:-

١ – فتح ميناءى هيوجو (كوبى الآن) وأوساكا على وجه السرعة.

٢ – الحصول على موافقة رسمية من البلاط الإمبراطورى على المعاهدات التجارية التى أبرمتها حكومة الباكفو.

٣ – تخفيض الجمارك على السلع المستوردة من الغرب.

وبالفعل تم فتح الميناءين أمام الملاحة الغربية، إلا أن ميناء هيوجو تم افتتاحه بعد عامين من طلب الدول الغربية. وتم أيضاً الحصول على الموافقة الرسمية من البلاط الإمبراطورى على المعاهدات التجارية التى وقعتها اليابان مع دول الغرب الخمس (Ansei Nogokakoku

Jōyaku)، أمـا فيمـا يتعلق بموضوع تخفيض الجمارك فقد تم هـذا بالفعل على أن يكون التخفيض من ٢٠٪ إلى ٥٪ فقط على كل البضائع، وهذا بالطبع تخفيض مبالغ فيه. وبهذا اقترب موقف اليابان ليصبح مشابهاً إلى حد كبير من موقف الصين بعد هزيمتها فى حرب الأفيون. بل يرى الكثيرون من المؤرخين أن اليابان كانت على شفا الوقوع أسيرة للاستعمار الغربـى، بسـبب هذه الضغوط الغربيـة. إلا أن مرونة اليابانيين فـى الموافقة على مطالب الغرب ذهبت بذرائع الغرب وأضعفت حجتهم.

ومـن ناحية أخرى، اجتمع عدد من زعمـاء المقاطعات الكبرى فى غرب اليابان بدعوة من الزعيم الوطنى العظيم سـاكاموطو ريوما فى مقر مقاطعة ساتسوما بالعاصمة كيوطو وذلك فـى يناير ١٨٦٦م. وفى هذه الاجتماعات أوضح سـاكاموطو لجميـع الزعماء أن على كل المقاطعات فى اليابان أن تتخطى حدود المقاطعة وتنظر إلى مصلحة اليابان العليا فى مواجهة الخطـر الغربى الداهم، ولابد للجميع أن يتعاونوا مـن أجل إنقاذ اليابان. وعليه فقد اتفق الجميـع على نسـيان ما حدث مـن نزاع فى الماضى، وخاصة ذلـك النزاع الذى كان بين ساتسوما وتشوشو أكبر وأقوى مقاطعتى الغرب اليابانى. وكذلك اتفق الطرفان على أن تساعد ساتسوما تشوشو وتمدها بالأسلحة فى حربها الدائرة ضد الباكفو. وفى هذا النزاع الدائر بين الباكفو وتشوشو، تغير موقف الدول الأجنبية التى كانت تتظاهر بالحياد، فقامت إنجلترا بتأييد موقف كل من ساتسـوما وتشوشـو، وذلك بعد أن اقتنع قنصل إنجلترا فى اليابان باركـس Parkes (١٨٢٨م – ١٨٨٥م) بأن دور الباكفو فى حكم البلاد بدأ يضعف. ولذلك فإن إنجلترا تطلعت إلى نظام سياسـى جديد يمسـك بمقاليده تحالـف المقاطعات الكبرى ولكـن بقيادة من البلاط الإمبراطورى. أما فرنسـا فرأت أن تعضـد موقف الباكفو الداخلى والخارجى. ورأى قنصل فرنسا فى اليابان (روشيه Roches ١٨٠٩م – ١٩٠١م) أن بلاده لابد أن تسـاعد حكومة الباكفو اقتصادياً وعسكرياً ولذلك قدمت لها قرضاً قيمته ٦ ملايين دولار. وهكذا تعارض موقفا كل من إنجلترا وفرنسا تجاه اليابان، وذلك مما أدى إلى تفاقم الصـراع بين كل من البلاط الإمبراطـورى والمقاطعات الكبرى من ناحية والباكفو من ناحية أخرى، مما يعنى تعاظم خطر تدخل القوى الأجنبية فى اليابان.

١٠ - الباكفو وتراجيديا النهاية:

عندما وصلت الأخبار إلى حكومة الباكفو بأن عدوتها اللدود مقاطعة تشوشو تبذل قصارى جهدهـا من أجل الحصول على مختلف أنواع الأسـلحة من الدول الأجنبية من أجل بناء

جيش قوى تابع لها، فإن الباكفو اشتعلت غضباً وصممت على عقاب هذه المقاطعة المتمردة. لكن رد الفعل من جانب الشـوجون وحكومته اتسم بالتفاخر والمظهرية، فقد قام الشوجون إييموتشـى على رأس موكب مهيب يتقدم جيشه إلى قلعة أوساكا. وظن إييموتشى وأتباعه أن هذا الموكب المهيب كافٍ لإيخافة تشوشو، وأنها سوف ترتدع مثلما حدث فيما سبق من خلال حملة لإخضاع تشوشـو الأولى التى انتهت دون قتال، وأنها سـوف تخضع لحكومة الباكفـو مرة أخرى. ولكن كانـت الأوضاع فى هذه المرة مختلفة تمامـاً فقد حدث التوافق بين تشوشـو وساتسـوما وحصلت أيضاً على أسـلحة متطورة وأعدت جنودها إعداداً جيداً فأصبحت تشوشو تنتظر على أحر من الجمر هذا اللقاء الحاسم مع جيش الباكفو.

وفـى مقابـل هذا، مـاذا كانت حكومة الباكفـو قد أعدت غير الموكـب المهيب؟! فى الحقيقـة إن روح القتال منذ البداية لم تكن محتدمة عند الباكفو وجنودها، وزاد على ذلك حدوث الاضطرابات والثورات فى المدن والقرى بسبب الكساد الذى عم البلاد وكذلك زيادة أسـعار الأرز، ومـن أجل تهدئة الأحوال فى البلاد قامـت مختلف المقاطعات بمجهودات لا بأس بها ولكنها رأت بسبب هذه الأحوال أن الوقت ليس مناسباً لإخضاع تشوشو. وكان عدد المقاطعات التى أبدت اعتراضاً واضحاً أو قابل حملة الباكفو على تشوشو بطريقة سلبية أكثر من عدد تلك التى وافقت عليها. ولكن كان أبرز شىء فى الحملة الثانية على تشوشو هو وقوف ساتسوما العدو القديم لتشوشو إلى جانبها ضد جيش الباكفو. وفى المقابل فقد بدا معسـكر تشوشو مستعداً تمام الاسـتعداد من كل النواحى حتى لدرجة الاستعداد الإعلامى لشـحن الجماهير من أجل مواجهة الباكفو، فقامت سـلطات المقاطعة بإعداد كتيب صغير طبعت منه ٣٦٠ ألف نسـخة وزعته فى داخل المقاطعة وخارجها. وبالفعل كان لاشـتراك الجماهير بمختلف مشاربها فى الحرب ضد جيش الباكفو أثره الواضح فى التغلب وانتصار جيش تشوشـو على جيش الباكفو. كذلك استطاع جيش تشوشو استغلال ثورات الفلاحين لصالحـه عندما كان يمدهم بـالأرز وهو أهم غذاء لدى الفلاح وكذلك بالمال حتى اسـتطاع بذلك كسب ودهم وتأييدهم. أما الثورات التى كانت تقوم ضد تشوشو وجيشها فقد استطاع الجيـش إخمادها بحزم. وبعد نحو شـهرين فقـط من بدء المعارك وفى خضم سلسـلة من الهزائم تلقاها جيش الباكفو توفى الشـوجون إييموتشـى فى قلعة أوساكا فى ١١ أغسطس ١٨٦٦م، وبعد عشـرة أيام فقط من وفاته أُعلنت الهدنة. وبعد أن تولى الشـوجون الخامس

عشر طوكوجاوا يوشى نوبو الشوجونية اتخذ من وفاة الشوجون الراحل فرصة لإعلان نهاية حملة الباكفو على تشوشو ولكن بعد أن تلقت الباكفو سلسلة من الهزائم وكانت على وشك تجرع كأس الهزيمة الشاملة لولا أن أنقذها من ذلك وفاة إييموتشى. ولكن كان من أهم نتائج هذه الحملة الثانية هى إظهار ضعف وهوان حال الباكفو أمام الجميع.

وهكذا وخلال سنوات قليلة واجهت الباكفو عدة تحديات سياسية وعسكرية سواء خارجية أو داخلية، وحتى يكتمل مشهد الأحزان على مسرح نهاية الحقبة الشوجونية جاءت الثورات والهوجات التى قام بها الفلاحون فى القرى وسكان المدن كذلك، وعلى الرغم من حدوث الكثير والعديد من الثورات والاضطرابات طوال عصر إيدو فإن هذه الفترة الأخيرة من هذا العصر تميزت بأكبر عدد منها وعلى الأخص كان عام ١٨٦٦م هو عام الثورات الأكثر عدداً والأضخم حجماً، فقد بلغ عدد الثورات والاضطرابات فى جميع أنحاء البلاد ما يزيد على مائة وثمانين. ولكن لوحظ أن فى معظم هذه الثورات والهوجات تكررت بكثرة عبارة «إصلاح البلاد» (Yonaoshi) وكانت الجماهير تعنى بذلك ضرورة إصلاح أحوال وسياسات الباكفو ومختلف المقاطعات من الأساس مشيرة بذلك إلى حال الفساد والحياة التى لا تطاق بسبب زيادة أسعار مختلف السلع منذ ابتداء التجارة مع الدول الغربية وكذلك بسبب الحرب الثانية التي شنتها الباكفو على مقاطعة تشوشو، مما أدى إلى زيادة أسعار سلع كثيرة أساسية مثل الأرز وعجينة الميسو (فول الصويا) والساكى (الخمر اليابانى) إلى ضعفى السعر الذى كانت عليه فى عام ١٨٦٥م.

وقد عبرت جموع المواطنين اليابانيين وعلى الأخص سكان المدن عن استيائهم من الأوضاع التى وصلت إليها الحالة الاجتماعية والسياسية فى البلاد بأغنية أطلق عليها «افعل ما بدا لك» أو ما يمكن وصفه بالتعبير الدارج «كله ماشى»، وليس على أحد حرج إذا ما شرب ما ليس له وإذا ما أكل ما ليس له وإذا ما أخذ ما ليس له، فكل شىء مباح (Eejanaika). وبدأت هذه الأغنية فى أواخر شهر أغسطس عام ١٨٦٧م فى منطقة ناجويا، حيث ثارت إشاعة مفادها أن بطاقات تسقط على رؤوس الناس لإسعادها فى معبد إيسى Ise jingu، ثم انتشرت هذه الشائعة وتلك الأغنية كما تنتشر النار فى الهشيم فى معظم أنحاء البلاد، ولم يُقتصر الأمر على الشباب والشابات فقط، بل شمل العجائز والأطفال والنساء. وارتدى الرجال أزياء النساء وحدث العكس للنساء حيث ارتدين ملابس

الرجـــال وطالب الناس مـــن خلال هذه الأغنية إصلاح البـــلاد (Yonaoshi) وكان البعض منهـــم يقتحـــم بيوت من لا يعجبون به أو يكرهونه من أصحـــاب الأراضى والتجار الكبار، ويطالبونهم بإخراج الطعام والشـــراب المتمثل معظمه فى الســـمك والخمر اليابانى الساكى. وفى بعض الأحيان كانوا يأخذون الملابس والأدوات المنزلية وغيرها صائحين: «ماذا يجرى لو أخذنا ذلك» أو بالأحرى افعل ما بدا لك فكل شىء مباح.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الهوجة المزوجة بالمزاح والغناء لم تصل فى قوتها وعنفوانها إلى درجـــة العنـــف والقوة التى كانت عليهـــا ثورات الفلاحين. وعلـــى الرغم من ذلك فقد أدت هذه الظاهرة إلى إحداث شـــلل فى أوصال حكومة الباكفو، وهى بذلك أوضحت مدى الإيجابية فى سلوك جموع سكان المدن فكان لها تقدير خاص. كذلك ارتبطت عبارة «إصلاح البـــلاد» أو «إنقاذ البـــلاد» بالفكر الدينى البوذى حيث اعتقد النـــاس آنذاك إن إلهاً منقذاً ســـوف يأتى لتخليص البلاد من ورطتها وأزمتها. وكان فى ذلك إســـقاط واضح على فســـاد حكومة الباكفو وعدم صلاحيتها، ولذلك يُعتقد أن دعاة إسقاط الباكفو كان لهم يد فى دفع هذه الظاهرة إلى الأمام حتى يتمكنوا من إسقاطها على أساس دينى وشعبى أيضاً.

وهكذا أعطت هذه الهستريا التى تفشت فى البلاد إشارات واضحة أن عصر الطوكوجاوا قد أعلن نهايته ولم يتبق إلا وقت ليس طويلاً حتى ينتهى رسمياً، وذلك على الرغم من أن الشـــوجون الخامس عشر يوشينوبو قد قام بجهود من أجل إصلاح النظام العسكرى اعتماداً على فرنسا. ولكن من ناحية أخرى ففى كيوطو توفى الإمبراطور كومى فى ديسمبر ١٨٦٦م، وكان هذا الإمبراطور من أشد المعارضين لحركة إسقاط الباكفو، ثم تولى من بعده الإمبراطور الصغير الســـن ميجـــى فتغيرت الأحوال وظهرت حركة تدعو لإسقاط الباكفو ولو باستخدام القوة المســـلحة. وإلى جانب ذلك تكاتفت جهود التحالف ما بين ساتسوما وتشوشو ومعهما عدة مقاطعات أخرى وتعاهدوا فيما بينهم على الإعداد من أجل التغيير.

وإلى جانب ذلك كانت هناك جهود فردية من أجل مستقبل جديد لليابان، وتمثلت هذه الجهود وتبلورت فيما عُرف بـ «مبادئ السفينة الثمانية» التى قام بإخراجها البطل القومى اليابانى ســـاكاموطو ريوما (١٨٣٥م – ١٨٦٧م). وقد سميت هذه المبادئ الثمانية بذلك لأن ريوما قام بكتابتها فى أثناء رحلته فى السفينة من ناجاساكى إلى كيوطو فى يوليو ١٨٦٧م. وهذه المبادئ الثمانية هى كما يلى:-

١ – إعادة السلطات إلى البلاط الإمبراطورى.

٢ – اختيار المستشارين من بين عناصر البلاد المتميزة من الأفراد وحكام الأقاليم وغيرهم.

٣ – إنشاء المجالس العليا والصغرى، ثم ممارسة السياسة عبر هذه المجالس جميعاً على أساس من المناقشات العامة.

٤ – إعداد دستور يكون الأساس لأمة جديدة.

٥ – إعادة الارتباط بالدول الأجنبية بمعاهدات متوازنة من جديد.

٦ – تقوية الجيش البحرى.

٧ – إيجاد نظام تجنيدى جديد لحماية العاصمة.

٨ – العمل على جعل قيمة الذهب والفضة وكذلك أسعار السلع مساوية لتلك التى فى الخارج.

وتعتبر الخطوة التى قام بها الشوجون الخامس عشر والأخير يوشينوبو وذلك بترك مقاليد الأمور للإمبراطور هى أهم ثمار سياسة السفينة النموذجية التى فكر بها ريوما. إلا أنه للأسف أن هذا المفكر والبطل القومى اليابانى سرعان ما سوف يُغتال بعد إخراجه لهذه المبادئ فى نوفمبر من العام نفسه ومعه صديق الكفاح «ناجا أوكا اشينتارو» (١٨٣٨م – ١٨٦٧م) وهما بعد لا يزالان فى ريعان الشباب. وهكذا أريق دم هذا المناضل الذى طالما نادى بإقامة الحكومة الجديدة بدون إراقة للدماء.

وكان ريوما بعيد النظر فى سياسة السلم التى نادى بها من أجل التغيير، لاسيما أنه كانت هناك مقاطعات كثيرة تؤيد الباكفو، وإذا حدث التغيير باستخدام العنف والقوة فإن هنا سوف يكون السبب فى حدوث حرب أهلية لا يعلم مداها سوى الله، خاصة مع حالة الفوران والهوجات التى كانت عليها البلاد آنذاك.

وبين حالة من التأرجح ما بين استخدام القوة المسلحة لإسقاط الباكفو والتى كانت تدعو لها مقاطعات مثل ساتسوما وتشوشو والتغيير عن طريق السلم استمر الوضع الملتهب حتى يوم ١٤ أكتوبر عام ١٨٦٧م عندما أخذ بزمام المبادأة الشوجون الأخير طوكوجاوا يوشينوبو وأعلن إعادة مقاليد الحكم للبلاط الإمبراطورى (Tai Seihokan)، وذلك بتوصية ونصيحة من حاكم مقاطعة طوسا السابق ياما أوتشى طويو شيجى (١٨٢٧م – ١٨٧٢م) نقلها إلى الشوجون السياسى جوطو شوجيرو (١٨٣٨م – ١٨٩٧م). ولكن ساتسوما وتشوشو

أبتـا إلا أن يأتى هذا القرار وذلـك التغيير إلا عبر أمر يصدر عن البلاط الإمبراطورى وليس بمبادرة من الشوجون الأخير. وبالفعل صدر الأمر الإمبراطورى بإسقاط الباكفو فى ٩ ديسمبر من العام نفسه، وجاء كالآتى:-

تلغى الباكفو (وهذا شـيء حتمى) والوصى على العرش وكذلك مسـاعدا الإمبراطور ويتم إنشاء ثلاث وظائف بدلاً منها هى: الحاكم العام ومنصب الياوران ومنصب المستشار، ويقوم الإمبراطور بتسـيير الأمور السياسـية بنفسه. ثم من الآن فصاعدا تعود الأمور كسابق عهدها فى الماضى بمعنى أن يتعاون الأمراء العسـكريون مع بعضهم البعض. ويمارسـون سياسـة جديدة على أن يتحروا المساواة فى المناقشات العامة من أجل تطبيق هذه السياسة الجديدة.

وهذا الأمر الإمبراطورى هو ما عرف فى التاريخ اليابانى باسـم الفرمان الأكبر لاستعادة حكـم الإمبراطور. وهكـذا انتهى عصر الطوكوجـاوا وحكومته العسـكرية (Bakuf) التى اسـتمرت لمدة ٢٦٥ عاماً، ليبدأ عهد جديد يكون فيـه الحكم ومقاليده فى يد الإمبراطور. وطبقـاً لهذا الفرمان فقد عين فى منصب الحاكم العام الأمير أريسـو جاوا نوميا تاروهيتو، وهـو ذلك الأمير الـذى ذكرناه آنفاً، والذى انتزعت منه خطيبتـه الأميرة كازونوميا حتى تزف للشوجون إييموتشى لكى يتم الاتحاد ما بين البلاط الإمبراطورى والحكومة العسكرية وذلك قبل نهاية الباكفو بنحو خمس سـنوات. وكذلك تم تعيين فى مناصب توازى الوزير اثنين من الأفراد وثلاثة من النبلاء وخمسة من حكام المقاطعات الكبرى السابقين والحاليين. وفى منصب المستشـارية عُين رجل البلاط السياسـى القدير إيواكـورا طوموميIwakura Tomomi (١٨٢٥م – ١٨٨٣م) ومن المقاطعات ذات النفوذ عين ممثلاً عن ساتـوما سايجو تاكا مورى (١٨٢٧م – ١٨٧٨م) الذى سـوف ينقلب على حكومة الميجـى بعد ذلك. وعين كذلك من ساتسـوما أوكوبوطوشى ميتشـى Ookubo Toshimichi (١٨٣٠م – ١٨٧٨م). ومـن مقاطعة طوسـا عين كل مـن جوطوشـوجيرو Gotō Shōhiro (١٨٣٨م – ١٨٩٧م) وفوكوأوكا تاكاتشيكا (١٨٣٥م – ١٩١٩م).

وهكذا بدأ رجال العهد الجديد عملهم وأسـدلوا بسـلام السـتائر على عصر إيدو المليء بالمتناقضـات والنزاعـات والصراعات أو هكذا بدا لهم، وبـدا للوهلة الأولى أن رغبة جناح ساتـوما وتشوشو الذى نزع لاستخدام القوة من أجل إسقاط الباكفو قد أصبحت غير ممكنة. ولكن هل يمكن أن ينتهى عصر من الصراعات الطويلة بكل هذه السـهولة؟ وهل تتلاشـى

بالفعل أحلام المتشـددين بهذه المرونة، وهم الذين كانوا يملكون الأسلحة الحديثة والطموح الجارف؟ هذا ما سوف نتعرف عليه عند الحديث عن بدايات العهد الجديد، عهد ميجـى.

١١ - ثقافة نهاية عصر الطوكوجاوا:

لا يسـتطيع حتى الجاحد أن ينكر أن فترة نهايـة الباكفو كانت بمثابة المخاض الحقيقى والإرهـاص الفعلى لنهضة ميجـى. ففى خضم الأحوال السياسـية المضطربة والفوضى القائمة، أخـذت الباكفو بتوطيد علاقاتها مع أمريـكا وأوروبا. ومن أجل تدعيم موقفها الداخلى وتأكيد اسـتقلال اليابـان أخذت حكومة الباكفو فى إدخال العلـوم والتكنولوجيا الحديثة عازمة على تحديـث البلاد. ففى بداية عصر الانفتاح علـى الغرب أو بالأحرى فتح البلاد على الغرب تم تطوير المؤسسة المعنية بترجمة الكتب الهولندية والتى أنشئت فى عام ١٨١١م إلى هيئة للترجمة مستقلة بذاتها، وكان من أهم مهام هذه الهيئة ترجمة مختلف علوم اللغة والعلوم الطبيعية لكل الـدول الغربية وكذلك ترجمة الخطابات والمبادلات الدبلوماسـية؛ حيث كانت خبرة اليابان فى هذا المجال حتى هذا الوقت فقيرة إلى حد كبير بسـبب العزلة الطويلة التى ضربتها على نفسـها ثم تطورت هـذه الهيئة الخاصة بالترجمة إلى وضع أفضل وأكـبر لتصبح هيئة تربوية لدراسـة العلوم الغربية مع تغيير اسمها إلى Yōsho Shirabesho أى ما يعنى مركز الدراسات والبحوث الغربية، وذلك فى عام ١٨٦٢م، وفى العام التالى (١٨٦٣م) تم توسيع هذا المركز مع تغيير اسمه إلى Kaiseijo أى بمعنى مركز الانفتاح والإنجاز، وفى هذا المركز تم إنشاء ٨ أقسام من أهمها قسم اللغات الأجنبية وقسم العلوم الطبيعية وقسم العلوم العسكرية، وكلها تعتمد على العلوم الغربية وخاصة الهولندية والإنجليزية والفرنسـية والألمانية والروسـية وغيرها ثم تحول هذا المركز ليصبح مدرسة ثانوية باسم كايس جاكو (Kaisei Gakku) فى عام ١٨٦٨م على يد الحكومة الجديدة، وفى عام ١٨٧٧م تحولت هذه المدرسة لتصبح جامعة طوكيو الإمبراطورية.

وفـى مجال الطب، حدثت نهضة طبية عظيمة ففى عام ١٨٦٠م تم وضع مركز تصنيع اللقاح ضد الجدرى الذى كان قد أقيم بجهود القطاع الخاص تحت إدارة الحكومة العسكرية فى إيدو، وذلك لإمكان التطعيم الوقائى ضد الجدرى، ثم تطور هذا المركز ليصبح مركزاً طبياً عاماً تُجرى فيه البحوث الطبية على أساس غربى.

ولما شعرت حكومة الباكفو أنه لابد من دراسة أوضاع الغرب وعلومه وقوانينه واقتصاده على يد الطلاب اليابانيين عملت على إرسـال عدد من أتباعها وغيرهم إلى مختلف البلاد

الغربيـــة فأرســلت تابعها نيموطو تاكـــى آكـــى Nemoto Takeaki (١٨٣٦م – ١٩٠٨م) ونيشـــى أمانـــى Nishi Amane (١٨٢٩م – ١٨٩٧م) المدرس فى مركز الترجمة وتســـودا ماكى Tsuda Maki (١٨٢٩م – ١٩٠٣م) ليدرســـوا فـــى هولندا، وذلك فى عام ١٨٦٢م. وأرسلت إلى إنجلترا فى عام ١٨٦٦م ناكامورا ماساناأو Nakamura Masanao (١٨٣٢م – ١٨٩١م)، الذى قام بترجمة العديد من أمهات الكتب الإنجليزية.

ولم تقتصر الجهود من أجل دراسة العلوم الغربية على حكومة الباكفو فقط، بل امتدت لتشمل مختلف المقاطعات. ففى عام ١٨٦٣م أرسلت مقاطعة تشوشو خمسة من مستخدميها إلى إنجلترا للدراســـة هناك ومن أشـــهرهم إيتـــو هيروبومـــى Ito Hirobumi (١٨٤١م – ١٩٠٩م)، الذى ســـيصبح أول رئيس للوزراء فى اليابان عند إنشاء النظام الوزارى، وكذلك اشـــتهر أيضاً من تشوشـــو إينـــو أوى كائـــورو Inoue Kaoru (١٨٣٥م – ١٩١٥م) الذى ســـيصبح مـــن أهم رجال العهد الجديد وســـوف يتولى عدة مناصب مهمـــة من أهمها وزارة الخارجية فى الوزارة الأولى لايتوهيرويومى. وقام حينها بتطبيق السياســـات الغربية وبذل جهداً وفيراً من أجل تعديل المعاهدات مع الغرب. أما مقاطعة ساتســـوما فســـوف ترســـل تسعة عشر من أبنائها إلى إنجلترا فى عام ١٨٦٥م ومن أشهرهم جودای طوموأتسو Godai Tomo atsu (١٨٣٥م – ١٨٨٥م) وتـــرادا مونى نورى Terada Munenori (١٨٣٢م – ١٨٩٣م) وموری أری نورى Mori Arinori (١٨٤٧م – ١٨٨٩م) ذلك المفكر الذى سوف يميل بفكره ومعتقداته كثيرا نحو الغرب.

وبتلـــك الخطوات تكون حكومة الباكفو قد خططت نحو تخفيف سياســـة المعاداة نحو الغرب، وكذلك تخفيف سياسة منع اليابانيين من السفر إلى خارج البلاد وبالفعل أصدرت أمراً صريحاً بالســـماح بالســـفر للخارج من أجل التحصيل العلمى والتجارة وغير ذلك، فقد سمحت حكومة الباكفو للمبشـــرين والصحفيين الأجانب بالمعيشة فى ميناء يوكوهاما، وقد قام هؤلاء بدور مهم بتعريف اليابانيين السياسة والثقافة الغربيتين. ومن بين المبشرين الذين أتـــوا إلى اليابان وقاموا بدور بارز وإيجابى فى نقل الثقافة الغربية لليابان اشـــتهر الطبيب الأمريكـــى جيمس هيبرون James Hepburn (١٨١٥م – ١٩١١م) فقد افتتح هذا الطبيب مركـــزاً للفحص الطبى ومدرســـة لتعليـــم اللغة الإنجليزية، وقام كذلـــك بوضع أول قاموس يابانى – إنجليزى وإنجليزى يابانى بالحروف اللاتينية. وأنشـــأ كذلك معهد ميجـــى عام

١٨٨٧م الذى تحول بعد ذلك إلى مدرسة ميجى الشهيرة عام ١٩٠٣م. وكذلك لم يبخل الإنجليز بجهدهم، فقد قام القنصل الإنجليزى أولكوك بتجميع المنتجات اليابانية الفنية والتقليدية وأرسلها إلى لندن لتعرض فى المعرض الدولى الصناعى عام ١٨٦٢م، وفى هذا الصدد قامت الباكفو أيضاً بالاشتراك فى معرض باريس الدولى وأرسلت أعمال الفنان التقليدى الشهير كاتسوشيكا هو كوساى Katsushika Hokusai (١٧٤٠م – ١٨٤٩م)، محاولة فى ذلك بذل الجهود من أجل الاعتراف الدولى بقيمة الثقافة والفن اليابانيين.

وهكذا تغيرت تدريجياً أفكار العداء للأجانب ومحاولات طردهم من اليابان وتطورت الأفكار لتنحو نحو الاعتراف وتقليد الثقافة الغربية، وبالتالى اشتدت أصوات المطالبين بالتحديث بقوة. وهذا ما سوف يحدث على توسع كبير وضخم فى عصر ميجى لتقوم نهضة ميجى وتصبح بداية للعصر الحديث. وهذا ما سوف نتناوله فى الفصول التالية بإذن الله.

□□□